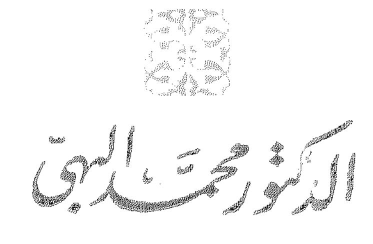
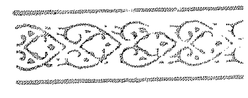


الدكتور محمد البهي

طبقية المجتمع الأوربي

وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامي المعاصر

يطلب من

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الدكتور محمد البهي

طبقية المجتمع الأوربي

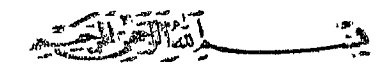
وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامي المعاصر

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٢٤٧٠

الطبعة الثانية

ذو الحجة سنة ١٤٠٢ هـ — أكتوبر سنة ١٩٨٢ م

دار التضامن للطباعة
٢٢ شارع سامي - ميدان لاظوغلي
القاهرة - تليفون ٣٠٥٥٦



مقدمة البحث

- لمـــاذا لم ينجح النظام الديمقراطى الرأسمالى فى الغرب فى تحقيق « التعادل » فى المجتمع الأوروبى الغربى ؟
- لماذا افلس النظام الاشتراكى الماركسى فى تحقيق المســـاواة وايجاد المجتمع اللاطبقى فى الشرق الأوروبى ؟
- لماذا يتبنى قادة المجتمعات الاســـلامية المعاصرة بعد اســـتقلالها السياسى أحد النظامين ، دون الأخذ بالاسلام ؟
- .... أهو القصور فى الاسلام ، أم فوات الوقت على صـــلاحيته ؟
- .... أم هو القصور بين القادة فى فهمه ؟
- .... أم هو الرغبة فى الاستناد الى احدى الكتلتين العالميتين فى مباشرة السلطة ؟
- .... يحاول هذا البحث الموجز أن يجيب على تلك الأســـئلة ، والله ولى التوفيق .

الاسكندرية — ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٨٨ هـ

اول اغسطس ســـنة ١٩٦٨ م

دكتور محمد البهى

الفصل الأول

المجتمع الأوربي في قيامه وتطوراته

كثر الحديث في بعض المذاهب الفلسفية المادية في القرن التاسع عشر — بعد ازدهار الثورة الصناعية الأوروبية (١) وزيادة راس المال في الصناعة اثر تحوله من مجال الزراعة — عن الصراع الطبقي في المجتمع الأوروبي ؟ وعن ضرورة انهاء هذا الصراع عن طريق حل واحد يتحتم لذلك ، وهو :

(أ) الغاء الملكية الفردية ونقلها الى الدولة .

(ب) وسيادة الطبقة العاملة في الاشراف على المزارع والمصانع على السواء .

---

(١) الثورة الصناعية الأوروبية قامت في انجلترا أولا حوالي سنة ١٧٦٠ م . وهي الثورة الصناعية الأولى ، عندما تحول المغزل اليدوي الى ميكانيكي في صناعة النسيج . وقد ساعدت هذه الثورة على ظهور الثورة العالمية العمالية التي تأسست على فلسفة « كارل ماركس » في القرن التاسع عشر .. والتي تقوم على ادعاء « التقدمية » واعتقاد وقوعها الحتمي .

والثورة الصناعية الثانية — الأوروبية أو الغربية — هي ثورة التيكنولجيا منذ النصف الثاني للقرن العشرين . وساعدت عليها الحرب العالمية الثانية . وهي تنقض حتمية الثورة التقدمية العمالية العالمية ، التي نشأت قبلها في القرن الماضي ، بمساندة الفلسفة الماركسية ، والتطبيق اللينيني لهذه الفلسفة في روسيا ، اثر الثورة البلشفية في اكتوبر سنة ١٩١٧ م .

(جـ) وضع نظام سياسي يكفل تنفيذ هذين الاتجاهين في دقة واخلاص .
وهو نظام الحزب الواحد الذي تنتهي القيادة فيه الى ارادة فرد واحد .

ويسمى هذا الحل المكون من النقاط الثلاث بالتقدمية أو بالتقدم الاجتماعي أو بالثورة الاجتماعية .. وهو حل يدعى أنه حتمي الوقوع في المجتمعات البشرية — حسبما ترى هذا المذاهب المادية — تقدم الزمن أو تأخر . أوبعبارة أخرى : هذا الحل هو مصير البشرية الذي لا مفر من الانتهاء اليه . ولذا فتطبيقه في أي مجتمع منذ الآن ينطوي على تقدم في الوعي بمصير المجتمع الانساني الأخير الحتمي !! . ولأن هذا الحل حتمي — كما هو منطق الفلسفة الماركسية التي تسانده — فتأخره في الوقوع يعود الى تعويق العناصر أو تعويق الطبقة التي لها مصلحة في عدم وقوعه ، وهي الطبقة التي تتشبث بالحكم ونظامه القائم ، أو تلك الأخرى التي تساندها باسم المقاييس الخلقية ، وهي طبقة رجال الدين ..

وكلتا الطبقتين تأخذ اسم « الرجعية » في مفاهيم هذه الفلسفة الماركسية المادية ..

ولكي لا يتأخر هذا الحل الماركسي في حتمية وقوعه ، أي لكي لا يتأخر زمنه ، أو لكي يستعجل تحقيقه ووقوعه .. ينادي هذا المذهب المادي :

- بـ « الثورة » أو بـ « الانقلاب » أي بالعمل غير المشروع لقلب نظام الحكم القائم في المجتمع الانساني — أي مجتمع انساني —

- والتنديد بالدين ورجاله ..

- وتحويل المجتمع الى مجتمع عمالي — بعيدا عن الاتجاهات الوطنية ، والاقليمية ، والدينية — على أن يأخذ مسيرة الحركة العمالية ، وينضم اليها للمشاركة في القضاء أخيرا على ما تبقى من نظم الحكم الرجعية ، أو نظم الحكم الرأسمالية في العالم الحر .

والانقلابات غير المشروعة تأخذ اسم حركات التحرير في اتجاه هذه الفلسفة ..

ودعاة هذا الانقلاب ينعتون أنفسهم بالمحبين للسلام .

والمخربون اللاانسانيون فى تلك الانقلابات هم أبطـال التحرير أو السلام العالمى .

ولكى تبرر الثورة التقدمية ــ وهى ثورة دموية ــ هذا العمل الانقلابى غير المشروع الذى يقوم على وسائل التخريب أو الارهاب .. أدخلت فى ايديولوجية نظام الحكم العمالى أو الماركسى ، كجزء لا يتجزأ منها ، مذهب « البراجماتزم » أو مذهب « المصلحة » كتوجيه أخلاقى .

والقصد من المصلحة هى :

مصلحة النظام العمالى فى الحكم .

أو مصلحة الحزب الوحيد المساند له .

أو مصلحة الفـرد الذى آلت اليه مقاليد الأمور وحده فى تدرج من التنظيمات السياسية ، بحيث يصبح هو قمة هرم من القـادة والمسئولين عن صون هذا النظام وتنفيذه .

وبذلك تحاول هـذه الفلسفة أن تضفى على « اللاشرعية » للثورة الدموية صفة الشرعية والأخلاقية معا .

وبامتداد الزمن الى القرن العشرين ، وبانقلابات نظم الحكم التى تمت فى شرق أوروبا اثر الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٨ م .. أصـبحت الطبقة السائدة أو التى يدعى لها السيادة فى بلاد نظام الحكم الماركسي أو الشيوعى أو البلشـفى فى القسـم الشرقى من أوروبا ، هى الطبقة العمالية أو الطبقة الكادحة من عمال المصـانع والفلاحين بالمزارع . هى الطبقة التى يقول عنها نظام الحكم البلشفى : انها كانت موضوع الستغلال للطبقات الأخرى غير العمالية فى المجتمع الأوروبى ، وبالاخص لطبقـة أصحاب رؤوس الأموال فى المصانع ، وطبقة الاقطاعيين فى المزارع .

وبرفع الطبقة العمالية ــ ولو نظريا ــ الى مستوى السيادة والحكم فى المجتمع ، تسقط امتيازات الطبقتين الأخريين ، وهما : الطبقة الأرستقراطية ،

وهى طبقة الأثرياء أو النبلاء ، والطبقة البرجوازية ، وهى طبقة المثقفين والمفكرين ، والعلماء ، أو الطبقة التى تعرف بالطبقة الوسطى .

... كما يجب — بجانب سقوط امتيازات الطبقتين الأخريين — أن تنهار القوانين الأخلاقية ، والأعراف ، والعادات ، والتقاليد والدين ، التى كانت تقنن سلوك المجتمع ، والتى كانت تعيش فى ظلها طبقات المجتمع الأوروبى الثلاث فى درجاتها المختلفة من قبل ، بما فيها طبقة العمال .

... ثم يجب أخيرا : أن تحل محل هذه القوانين والمقاييس الأخلاقية قوانين جديدة تسود المجتمع ، وهى تلك القوانين التى تعبر عن مصالح العمال فى المصانع والمزارع وحدهم ، كما تعبر عما تنطوى عليه نفوسهم من حقد على الأثرياء ، والبورجوازيين معا ، وعن رغبتهم فى الانتقام منهم والسخرية بهم ».

ونعتقد هذه الفلسفة الماركسية المادية الاجتماعية : أنها بجعل الطبقة العاملة فى المجتمع صاحبة السيادة فيه تنهى ما تسميه « بالصراع الطبقى » كما نقرر السلام بين أفراده ، بحيث لا تعود الطبقية فيه من جديد ، وبالتالى لا يعود صراع بين (١) طبقاته .. بينما فى التنظيم السياسى الحزبى لهذا النظام الماركسى ينكشف الأمر فى التطبيق عن وجود الصراع مرة أخرى فى هذا المجتمع الماركسى ، وهو صراع ينتقل هذه المرة الى

---

(١) منذ وفاة « ستالين » فى سنة ١٩٥٣ ظهر الصراع المكبوت من أجل الحرية الفردية بين شعوب الاتحاد السوفييتى ، وتبلور هذا الصراع فى المطالبة بالاصلاح الاقتصادى والحرية الثقافية وحرية الكلمة .

ومنذ سنة ١٩٦٥ تجلى هذا الصراع بين ما يعرف بالقديم وهو الاتجاه الأرثوذكسى فى الماركسية اللينينية وما يعرف بالجديد فيها ، وهو اتجاه يدعو الى التحرر من ديكتاتورية الحزب ، كما يدعو الى الحرية التعبيرية وجميع الحقوق المدنية .

الحزب من جانب والشـــعب من جانب آخر : الحزب كفئة مختارة متميزة بالحكم ، والشعب كقاعدة عامة تتلقى التوجيه واوامر الحزب .

***

وبمراجعة تاريخ المجتمع الأوروبى منذ عهد الاغريق قبل الميلاد ومـــا بعد الميلاد فى القرنين الأخيرين : التاســـع عشر والعشرين .. نجـــد أن هذا المجتمع تكون على أساس طبقى ، وأن هذا التكوين صحبه « تبرير » ميثالوجى أولا ، ثم فلسفى بعد ذلك يوضح ضرورة الوجود الطبقى فيه ، وفى كل مرحلة من مراحل تطوره .

والفلسفات الاجتماعية الأوروبية ما بين : مثالية ، ومادية تستهدف هذا التبرير فى صورة أو فى أخرى .

ولم تنجح المســيحية عندما دخلت رومـــا ـــ عاصمة الامبراطورية الرومانية ـــ فى ازالة الطبقية من المجتمع الأوروبى ، واعادة تكوينه على أساس متساو فى الاعتبار البشرى !!

وهو أساس الاخوة فى الدين والايمان والقيم الانسانية . لأن المسيحية عندما دخلت رومـــا تأثرت بالوضع المـــادى للامبراطورية وبنظمهـــا فى المجتمع ، فلم تبق كدين وكمجموعة من المبادىء الروحية والأخلاقية فقط .. وانما سرعان ما غلب عليها طابع الدولة فى صورة الكنيسة وسلطة رجالها .. ومن ثم سعت الى الحكم ، والسيادة ، وسلطة الدولة .

واذا حاولت اية منظمة أن تباشر سيادة وحكما على ما عداها فمعنى ذلك أن القائمين بأمرها يتميزون عن الآخرين فى المجتمع ، وبتميزهم يقوم الفصـــل بينهم وبين الآخرين .. وهكذا الفصل بين مجموعة من الأفراد ومجموعة أخرى منهم هو أخص مظاهر الطبقية .

***

ولكى يتضح التكوين الطبقى للمجتمع الأوروبى ـــ الذى كان له أكثـــر من عشرين قرنا الآن واستمر فى صورة أو فى أخرى حتى الوقت المعاصر ،

رغم التبرير الفلسفى الذى يحاول أن يطبعه بطابع انسانى .. يجب أن نستعرض فى اختصار تطورات هذا المجتمع من وقت قيامه عند الاغريق فى صورة مدنية ، أخذت نظام الدولة وترابط الادارة :

١ ــ ورث فلاسفة الاغريق مجتمع الكهنوت والوثنية . ونظام الكهنة ، وعقيدة الوثنية كلاهما يقوم على امتيازات للمستويات التى يتكون منها ذلك النظام ، ولتلك الآلهة العديدة التى يعتقد بتأثيرها نفعا أو ضررا فى مجرى الحياة الانسانية على الأرض . وكان الكهنة هم الذين يمثلون الطبقة العليا فى المجتمع الاغريقى ، على من عداهم .

وعندما عرفت أثينا بالفلسفة ، أى عندما دخلت الفلسفة الاغريقية مجال الانسان والمجتمع كنظام للحياة والدولة ، ظهر « أفلاطون » فى « جمهوريته » يعكس ما عرفت به الفلسفة الاغريقية الانسان من أنه : « حيوان ناطق » على المجتمع ككل .

ويرى فى تطبيق هذا التحديد أن المجتمع يتكون من ثلاث طبقات :

أولاها وأعلاها : طبقة الفلاسفة .

وثانيتهما وهى الوسطى : طبقة المحاربين أو المدافعين عن المجتمع ضد الغزو الخارجى .

وثالثتهما وهى أدناها : طبقة الخدم أو العبيد . وهى الطبقة التى تقوم بخدمة غيرها من الطبقتين السابقتين .

فالحيوانية التى هى جزء فى تعريف الانسان وتحديده عند الاغريق ، ترمز الى الغرائز فى طبيعته .

والغرائز هى تلك القوى التى تدفع الانسان الى السلوك والتصرف ، دون الحاجة الى وعى ، والى شعور .

... بينما الجزء الآخر فى هذا التعريف ــ وهى « الناطقية » ــ يشير الى الادراك ، أو العقل ، أو الشعور وهى تلك القوة فى الانسان التى ترجح عند الحكم ، وتريد وتصمم عند التنفيذ .

ومن أجل ما تقوم به هذه القوة المدركة من تحليل ، وترجيح ، ثم من اختيار ومشيئة تتميز عن تلك القوة الأخرى الدافعة نحو العمل فى عماء وفى غير احتياط وهى الغريزة ، كما تعتبر خصيصة الانسان وما يتميز به عن الحيوان .

والفرد من الانسان اذن يتمتع فى طبيعته :

بقوة دافعة .

وأخرى موجهة .

وتصرفه ، كسلوكه يعبر عن خليط واضح تماما ، وغير منفصل بعضه عن بعض ، من آثار هاتين القوتين معا .

ومع ذلك قسمت الفلسفة الاغريقية فى النظام الفلسفى « لأفلاطون » : النفس الانسانية أو الطبيعية البشرية الى ثلاثة جوانب أو الى ثلاث دوائر رئيسية :

الجانب الحكمى : وهو يمثل هداية العقل وحكمته .

والجانب الغضبى : وهو فى الغرائز يمثل ميل الانسان الى المقاتلة والدفاع .

والجانب الشهوى : وهو فى الغرائز أيضا يمثل ميل الانسان الى المحافظة على البقاء الشخصى والنوعى بما تحتاج اليه المعدة من أكل وشرب، أو بما يحتاج اليه الفرج من معاشرة جنسية .

ونظرت هذه الفلسفة الى هذه الجوانب نظرة غير متساوية ؛ أى فاضلت بينها وميزت بعضها عن بعض . فاعتبرت الحكمة الجانب الأعلى ، تقابلها الشهوة تماما على أنها الجانب الأدنى ، ويتوسط النوعين الجانب الغضبى .

وتأثرا بهذا التقسيم فى نفس الفرد وطبيعته ، وبالتميز بين جوانبه الثلاثة خرجت نظرة « أفلاطون » الى المجتمع الانسانى بأنه : على شاكلة نفس الفرد فى طبيعة التكوين والتقسيم ، ثم فى التميز والتفضيل ، وأنه

اذا كان الفرد صورة مصغرة للعالم الانسانى فالعالم الانسانى كمجتمع كبير يوضح معالم الفرد .

واذا كان المجتمع ينظر اليه كوحدة — كما ينظر الى الفرد — فهو فى داخله يتكون من طبقات ، يعلو بعضها بعضا ، ولا يمكن أن تتساوى فى الاعتبار الا فى التنسيق بينها ، بحيث يؤدى تنسيقها الى تفاعل ، والى حركة المجتمع فى بقائه . كما ينسق بين قوى النفس الفردية ، ضمانا لوجود الفرد وحركته التى تصون ذاته ، وتصون ذوات الآخرين معه فى مجتمعه .

والطبقة التى لها الرياسة فى المجتمع هى طبقة الحكماء والفلاسفة . لأنها تمثل الحكمة والعقل . ورياستها هى لضمان التوجيه السليم فى الدولة . اذ توجيهها فوق التأثر بالانفعالات والقوة الغضبية فى خصائصها ، وفوق التأثر كذلك بالشهوة والقوة الشهوية فى خصائصها .

والطبقة المقاتلة أو المدافعة هى طبقة المحاربين أو طبقة الجيش . وهى تتلقى الأوامر بالدفاع والحماية من تلك التى تعلوها ، وهى طبقة الفلاسفة ، نظرا لحكمتها وبعد نظرها فى التدبير .

أما الطبقة الدنيا فى المنزلة والعمل أيضا ، فهى طبقة العبيد والخدم. فقيمتها لا فيما تبديه من رأى فى التوجيه ، ولا فيما تقاتل وتحارب من أجل الوطن والمجتمع ، لأنها لا تستطيع أيا من المهنتين . ولكن فيما تقوم به من خدمات منزلية ، وخارجية : فى الحقول ، وشوارع المدن ومرافقها العامة ، هذا العمل الذى يمكن الطبقتين الأخريين من أداء ما نيط بهما ، بحكم خصائصهما الطبيعية .

والعمل اليدوى اذن فى هذا التكوين للمجتمع الاغريقى أقل قيمة من العمل العقلى أو الذهنى .

فاذا انطوى العمل اليدوى على شجاعة ، كما فى عمل المحاربين فهو

أرفع شأنا من ذلك النوع الآخر منه الذى لا يحتاج الا الى قوة عضلية فى انجازه .

فالشجاعة فى المحاربين فى أولى مراحلها تقوم على التفهم التام والوعى الواضح بالمجتمع وأهدافه ووجوب المحافظة عليه . وهذا أمر يقرب عمل المحاربين الى درجة الحكماء ، ويرفعهم عن ذلك العمل اليدوى الآلى ، وهو ما نيط بالطبقة الدنيا ، وهى العمال والعبيد .

***

٢ ـــ وعندما ذهب استقلال « أثينا » وأصبحت جزءا من الامبراطورية الرومانية فى الغرب التقى تكوين المجتمع الأثينى الفلسفى بتكوين المجتمع الرومانى المـــادى على الطبقية ، وان اختلف تحديد الطبقات فيهما ، حسب مقياس الأفضلية بينهما .

فالمجتمع الرومانى الامبراطورى هو مجتمع فرسان ومحاربين : مهمتهم الفتوح والمغامرات فى الشرق والغرب على السواء . وتوسع الامبراطورية الرومانية كان بفعل الغزو ، وبفضل قيادة الفرسان الغازين : سواء فى أوروبا ... الى انجلترا ، أو فى شمال افريقيا أو فى آسيا ... الى حدود الامبراطورية الفارسية فى الشرق الأدنى .

ومجتمع الفرســـان والغزاة لا يمكن أن يكون مجتمع مساواة بين أفراده ، كما لا يمكن أن تكون فيه طبقة تعلو طبقة المحاربين ورجال الجيش فيه . لأن تأسيسه كان بعملهم ، ولأن بقاءه كذلك مرهون بقيادتهم .

وهنا كان الاختلاف بين المجتمع الأثينى الفلسفى والمجتمع الرومانى الامبراطورى هو : أن طبقة الفرسان والمحاربين التى تمثل القوة الغضبية فى الانسان حلت هنا محل طبقة الفلاسفة فى المجتمع الاثينى والتى تمثل الحكمة فى الانسان أيضا .

وانتقلت بذلك طبقة الفلاسفة والمفكرين الى المنزلة الثانية فى المجتمع الرومانى ، بينما بقيت طبقة العمال والعبيد فى المنزلة الدنيا ، لم يتغير وضعها الاجتماعى ولا الوظيفى فيه .

فالطبقية فى المجتمع الرومانى الامبراطورى لم تزل أساس تكوينه . وفقط عندما وضع المحاربون أنفسهم فى مستوى الأرستقراطيين أو فى المستوى الأول فى المجتمع تميز العمل العضلى على العمل الذهنى ، ووضعت القوة الغضبية فوق « الحكمة » والتريث فى تدبير الأمور . وأصبح المجتمع عندئذ معرضا للتهور والاندفاع الذى هو مظهر ــ بجانب الشجاعة ــ للقوة الغضبية ، اذا لم تقدها الحكمة .

فالفرق بين الشجاعة والتهور ــ وكلاهما مظهران للقوة الغضبية ــ هو : أن العقل فى حال قيادته لهذه القوة يكون العمل الذى تقوم به هو الشجاعة ، بينما فى حالة خضوعه لها يكون عملها هو التهور ، بفعل الاندفاع الذى خلا من التروى .

والمجتمع الذى يتعرض للاندفاع والتهور تنتظره مفاجآت عديدة ، حسب قوة الاغراء بالركون الى القوة المادية ، والى المظاهر المادية فى الحياة الانسانية .

ويصبح المجتمع عندئذ مجتمعا ماديا ، على معنى : أنه يقيم الصفحة المادية فى الحياة أكثر مما يقيم الاتزان والحكمة . ومن هذا كان الاغريق فى مجتمعهم مثاليين أو انسانيين ، بينما الرومان كانوا أصحاب نزعة مادية ، وأرستقراطية مادية ، وحضارة مادية . وتجلت هذه المظاهر كلها فى عهد القيصر الرومانى (Trajenus) (٩٨ ــ ١١٧ بعد الميلاد) .

والأقرب فى المفاجآت التى تنتظر مجتمع الاندفاع والتهور الى الوقوع هى مفاجأة السقوط والزوال . وفعلا سقطت دولة الرومان فى القرن الخامس بعد الميلاد وسط مظاهر مادية كانت لقوتها وضخامتها توحى بالخلود فى حبه البقاء لهذا المجتمع .

وهذا المجتمع الرومانى الطبقى لم تكن مظاهر الطبقية فيه هى هذا التقسيم الثلاثى لطبقاته ، ولا تلك الامتيازات التى كانت للفرسان المحاربين الذين هم فى الوقت نفسه رجال الدولة والسياسة ، وانما أيضا تلك الحروب الطويلة التى استمرت قرابة قرنين من الزمان : من القرن الخامس

الى القرن الثالث قبل الميلاد ، بين الأرستقراطيين والطبقة الشعبية المستضعفة ، وهى الطبقة الدنيا من أجل حقوقها فى المساواة فى الأوضاع الاجتماعية والمدنية .

***

٣ — وبسقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب والشرق على السواء شهدت أوروبا عددا من المجتمعات ، بعد أن استقلت شعوبها الى دويلات ، ولكنها مجتمعات متشابهة فى النظام الطبقى ، تتكون :

الطبقة العليا فيها من الأمراء والنبلاء ،

تليها الطبقة الوسطى من المثقفين ،

ثم تأتى فى الدرجة الدنيا العبيد فى الزراعة وخدمة المنازل .

وكان الأمراء والنبلاء يميلون الى الفروسية والحرب . وبذلك كانوا يشبهون قياصرة الرومان فى الامبراطورية الرومانية ، مع الفارق فى القوة واتساع السلطة والنفوذ .

وموقف الكنيسة الرومانية فى الغرب — وهى الكنيسة الكاثوليكية — طوال القرون الوسطى (من ٣٧٥ — وهو بداية هجرة الشعوب الأوروبية — الى اكتشاف أمريكا سنة ١٤٩٢ بعد الميلاد) هو موقف المبارك للأمراء والنبلاء فى المجتمعات الأوروبية ، سواء فى امتيازاتهم ، أو فى بسط سلطانهم على من عداهم من : المثقفين ، والعبيد ، اذ أن الكنيسة بهذا الموقف تفيد كذلك من جاههم وثرواتهم فى تمكين سلطتها ، وزيادة فعاليتها فى التوجه الدينى والسياسى معا . بالاضافة الى الأموال الطائلة التى كانت تجبى أو تمنح من هؤلاء الأمراء والنبلاء للكنيسة والمنظمات التابعة لها ، كالأديرة والملاجىء والمدارس ...

وموقف الكنيسة هذا مع أنه كبت علانية الصراع الطبقى فى هذه المجتمعات الأوروبية الى حين ، الا أنه لم يستطع أن يحول دون ظهور هذا الصراع فى أعنف صورة فى الوقت المناسب . لأن جذور هذا الصراع فى

المجتمع الأوروبى قائمة وقوية لم تضعف ، تنميها الفوارق الواضــحة بين الطبقات والامتيازات العديدة التى لبعضها على بعض .

واخص تلك الفوارق عدم المســاواة فى الاعتبار البشرى بين أفراد المجتمع الواحد ، واوضح تلك الامتيازات : ضمان ترف الحياة لمجموعة ، والشقاء والحرمان من ضروراتها لمجموعة أخرى فيه .

ولو أن الكنيسة لم ترد أن تكون دولة وصاحبة نفوذ واضح عن طريق مظاهر الدولة ، وبقيت للروحية المسيحية والاخوة فى الانسانية .. لربما كان دورها فى المجتمعات الأوروبية وتخفيف حدة الصراع الطبقى فيها أعمق من الدور الذى كانت تمارسه فى جمع « الاحسان » فى صناديق الكنائس وتوزيع بعض ما يجمع على الفقراء وأصحاب الحاجة ، بينما رجالها يقلدون الأمراء والنبــلاء او يستأمرون الأمراء والنبلاء لجاه الأرض ومظــاهر الملك عليها .

***

اختفى الاتجاه الأثينى الفلسفى المثالى فى تكوين المجتمع الاغريقى بعد ذهاب استقلال « أثينا » وخضوع الشعب الاغريقى للامبراطورية الرومانية . ولكن الاتجاه المــادى فى تكوين المجتمع الرومــانى لم يختف بســقوط الامبراطورية الرومانية وتقسيم أوروبا الى دويلات وظهور مجتمعات صغيرة نسبيا فيها . ولم تستطع روحية المســيحية فى نظامها الكنسى أن تعيد التوازن بين القيمة المادية والاعتبارات الانسانية فى بناء المجتمع الأوروبى ، بعد سقوط الوضع الامبراطورى للدولة الرومانية . وبقى الاتجاه المــادى الرومانى يأخذ طريقه الى الأجيال . والمجتمعات الأوروبية التى تلت سقوط الامبراطورية الرومانية فى أوروبا الى الوقت المعاصر .

واذا كان التكوين الطبقى للمجتمع من شأنه أن يثير الفرقة فالخصومة ، فان توكيد الاتجاه المادى فيه يزيد من هــوة الفرقة وحدة الخصــومة بين طبقاته .

ومن هنا بقى المجتمع الأوروبى قلقا رغم تغير المجتمعــات فى أوروبا

وسيظل قلقا وحائرا ، طالما يحتفظ بالنزعة المادية فى تقسيم الانسان . اذ أن هذه النزعه المادية وحدها — وليس التكوين الطبقى — هى التى توقد شعلة الفرقة ، وتحولها الى حرب طبقية ، عندما يكون هناك آثار أو أساس للتكوين الطبقى فى المجتمع .

***

٤ — هذه النزعة المادية — مع وجود التكوين الطبقى للمجتمع الأوروبى بعد سقوط الامبراطورية الرومانية — هى التى مهدت للثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩ . وهى ثورة الطبقة الوسطى .

وهى كذلك ثورة طبقة المثقفين ضد الأمراء والنبلاء ، اى ضد الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الفرنسى ، وبالطبع كذلك ضد رجال الدين الذين ساعدوا هذه الطبقة على أن تتكون ، وعلى ان تبقى فى قمة المجتمع الأوروبى فترة طويلة .

واذا كانت الثورة الفرنسية يمكن أن يقال فى شأنها : انها قد أعادت المثقفين الى المستوى الأول فى المجتمع الفرنسى ، ويشبه المجتمع الفرنسى آنئذ المجتمع الافريقى قبل ذهاب استقلاله ، فان الاتجاه المادى — وقد تحول الآن الى ما يسمى بالاتجاه الواقعى أو بالاتجاه العلمى الطبيعى ، انصرافا عن الاتجاه الروحى الذى تباشره الكنيسة ، أو الى ما يسمى اتجاه البعد عن الدين ، ذلك الاتجاه الذى يبعد من آثار الحضارة الرومانية — قد استمر فى هذا المجتمع الفرنسى الجديد .

والثورة الفرنسية بازالتها الطبقة الارستقراطية من الأمراء والنبلاء فى المجتمع الأوروبى ،

وبوضعها الطبقة المثقفة وهى الطبقة الوسطى مكانها ،

... حاولت أن تقلل من الفجوات الاجتماعية فى الاعتبار الانسانى بين الطبقات الموروثة . ومن أجل ذلك أعلنت شعارها فى :

١ — الحرية ،

٢ — والمساواة ،

٣ — والاخاء ،

... والحرية التى تنشدها هى الحرية الفردية للجميع .

والمساواة التى تطالب بها هى تلك التى تتصل بالحقوق المدنية للجميع أيضا .

أما شعار الاخاء فليس الا لرد الاعتبار البشرى للطبقة الدنيا ، وهى التى تقوم بالعمل والخدمة اليدوية فى الزراعة أو فى المنازل ، أو فى الحرف الصغيرة .

وأهمية الثورة الفرنسية اذن هى فى محاولة تصحيح وضع المجتمع الأوروبى بالتغلب على روح الطبقية التى سادت هذا المجتمع قرونا طويلة :

فالقضاء على الأرستقراطية وهى تجسم روح الطبقية ،

ورفع القيمة الانسانية لمن أسىء وضعهم الاجتماعى ، بسبب نوع العمل الذى يقومون به ، ولم يكن بسبب قصورهم فى الجانب الانسانى .

... يؤذن من غير شك ببدىء حياة انسانية جديدة ، تواجه المجتمع الأوروبى ، وتؤتى ثمارها حتما ، لو لم يوقف اتجاهها عامل من الماضى أو فتور فى دفعه فى المستقبل .

وقد نجح بالفعل عامل من عوامل الماضى فى التغلب على هذه النزعة الانسانية ، نزعة الاخاء والمساواة .

هذا العامل فى جوهره هو : كراهية « الروحية » التى كان رجال الكنيسة يحملون رسالتها وهى لم تكن كراهية مباشرة للروحية المسيحية ذاتها ، بقدر ما هى موجهة الى الكنيسة ونظامها ورجالها .

وكراهية الروحية هذه — بجانب سيطرة الاتجاه الطبيعى حملت على الأخذ أو على احياء راسب الحضارة الرومانية فى المجتمع الأوروبى وهو الراسب المادى .

واذا قيم الاتجاه المادى فى حياة المجتمع والانسان ، وبولغ فى تقييمه فلا شك أن تضعف — مع مبالغة التقييم — النزعة الانسانية فى حياة

المجتمع والانسان .. .. الى أن تتلاشى بالتدريج شيئا فشيئا . رغم أن هذه النزعة كانت أصيلة فى تغيير المجتمع الفرنسى وفى حدوث تلك الثورة التاريخية الكبرى .

ان ارتباط الكنيسة بالطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الأوروبى قبل الثورة الفرنسية ، منذ سقوط الدولة الرومانية ، كان ارتباطا غير موفق لرسالة الروحية المسيحية نفسها ، ثم للمجتمع أيضا .

أما عدم توفيق هذا الارتباط بالنسبة لرسالة الروحية المسيحية فذلك فى تجنب الدولة المدنية للدين كلية فى التوجيه وفى خلق تلك الانفصالية بين الدولة والدين :

الدين للكنيسة :

والعلمانية (أى ابعاد الدين) للدولة فى التوجيه : سياسيا ، واقتصاديا، وثقافيا ، وقانونيا .

وأما عدم توفيقه بالنسبة للمجتمع فلأن النزعة العلمانية للدولة قربت اليها « المادية » فى الواقع ، أو قربت اليها العلم فى التوجيه .

وعندما تسود « المادية » توجيه المجتمع يضعف مجال النزعات الانسانية فيه ، أو يستهزأ بها فى اتجاهاته .

وبذلك تبقى روح الطبقية ، ولا تضعف فضلا ، عن أن تموت .

ويكاد من أجل ذلك يكون موقف الكنيسة الرومانية من المجتمعات الأوروبية طوال القرون الوسطى هو الذى أثر على الثورة الانسانية فى أهدافها . ويكاد يكون أيضا هو الذى مهد لفلسفة ماركس وللثورة البلشفية فى أكتوبر سنة ١٩١٧ . وهى ثورة توشك أن تكون العدو الأول ، الذى لم يخلق من قبل . للروحية وللدين . وللنزعات الانسانية الخالصة .

فقضية : « الدين والدولة » هى بذاتها قضية « العلم والدين » فى التاريخ الأوروبى . انها تعبر عن النزاع بين الدين والدولة . أو بين

الكنيسة ورجال السياســة . ذلك النزاع التى عمقت هوته الثــورة الفرنسية . للأسباب التى ذكرت من قبل .

● هى قضية تاريخية تخضع للعوامل الاجتماعية الأوروبية فى تاريخ المجتمع الأوروبى . وليست قضية عامة يمكن مثلا أن يكون أحد طرفيها الاسلام . لأن الاسلام لن يتحول يوما ما الى هيئة روحية لها نظام دولى مســتقل على نمط الكنيسة . تتنافس فى السيادة فى المجتمع الاسلامى . وتأخذ موقفا معينا لاحدى طبقاته . ان كانت له طبقات .

● فالاسلام بنظامه كان ــ ولم يزل ــ كمجموعة من المبادىء والقيم العليا ــ دين الحياة اليومية . ودين الحياة السياسية . ودين التوجيــه الاجتماعى فى المجتمع الاسلامى .

واذا حصل ان وقع فى تاريخ هذا المجتمع الاسلامى فصل بين سلطة تسمى زمنية وأخرى تسمى دينية فلا يعود ذلك الى طبيعة الاسلام . ولا الى رغبة علماء المسلمين فى المناقشة فى السيادة والسلطة . وانما يعود الى انضعف فى قيادة المجتمع التى كانت تنزع الى الدنيا فى انطلاق وفى غير حدود . أو الى ضعف المجتمع نفسه ووقوعه تحت التأثير الأجنبى الذى كان يسعى الى التسلط على المسلمين .

واذا وقف علماء المسلمين فى تحيز للحكام فى المجتمع الاســلامى فى حقبة من الزمن فقد كان ذلك ــ ويكون ــ لضعف هؤلاء العلماء ورغبتهم فى الارتزاق بالدين ، وليس من أجل تنافسهم على السلطة كما كان يصنع رجال الكنيسة الرومانية مع طبقة الأمراء والنبلاء فى المجتمع الأوروبى .

وعلى كل حال فقد كانت الثورة الفرنسية هى النداء القوى للمساواة فى الاعتبار الانسانى فى المجتمع الأوروبى . كما كانت محاولة واضحة للقضاء على أسس الطبقية فى تكوين هذا المجتمع الغربى وقد صحبت المطالبة فى الثورة الفرنسية بالمساواة فى الاعتبار البشرى ، فلسفة « اجتماعية » تزعمها الفيلسوف الفرنسى (Comte) (١) « أوجست كونت » واستهدفت من اعتبار علم

---

(١) عاش بين عامى ١٧٩٨ ــ ١٨٥٧ م .

الاجتماعية [illegible] العلوم ، تقييم القوانين الاجتماعية بما يجعل لها صلاحية فى الاعتبار والتطبيق : تتساوى على الأقل — ان لم تفقها — بصلاحية القوانين الرياضية »

وبذلك تتوفر دلائل الاقناع فى المنطق الانسانى بوجوب احترام المظاهر الانسانية المشتركة بين الأفراد ، دون الخضوع للقيود والفجوات الموروثة التى صنفت هؤلاء الأفراد الى مستويات وطبقات ، ووضعت بينها حجبا ، وقيمتها بقيم مختلفة ، فكان المجتمع القلق والمتنازع ، صاحب الطبقية.

« وكونت » فى فلسفته الاجتماعية اكد دائما النزعة الانسانية والاعتبار الانسانى ، مما جعل الاتجاه الاجتماعى ذا طابع انسانى ، أكثر مما هو مادى . ومما جعل العلاقات بين الأفراد فى المجتمع ذات ترابط فى القيمة الانسانية أكثر مما هى مبادلات اقتصادية ومادية . حتى انه يجعل ما يعطاه الفرد على عمل ليس اجرا عليه ، وانما هو لقاء ما يجب على المجتمع أن يقدمه للفرد من خدمات .

أما العمل فهو واجب الفرد نحو المجتمع يؤديه دون أن يؤجر عليه . والعمل اذن ليس سلعة ، والانسان كذلك لا يقيم بما يأخذه من المجتمع من أجر .

واذا كانت الثورة الفرنسية فى أصلها هى ثورة من أجل حقوق الانسان .... فهى كذلك ثورة وطنية ، من أجل قيام دولة وطنية فى فرنسا لا تخضع للنفوذ الخارجى .

***

٥ — ولكن لأن الصراع بين العلمانية والروحية ، أو بين الدولة والكنيسة ، أو بين العلم والدين أبعد الاتجاه الانسانى فى الثورة الفرنسية عن أن يضعف روح الطبقية ، ويقضى على مظاهرها وأسسها ... قويت هذه الروح الطبقية من جديد ، وتلا الثورة الفرنسية — فى القرن التاسع عشر — مجتمعات طبقية ، يصور الطبقية العليا فيها :

رجال المال والصناعة والتجارة ، وأصحاب الأملاك الزراعية الواسعة، بدلا من الأمراء والنبلاء فى مجتمعات ما قبل الثورة الفرنسية ،

وبقى المثقفون والمفكرون يمثلون الطبقة الوسطى .

بينما حل عمال المزارع والمصانع بعد أن كثر انتاجها بسبب ما يسمى بالثورة الصناعية ، وهى ثورة الآلة والقوة البخارية محل العبيد والخدم فى تمثيل الطبقة الدنيا فى المجتمعات الأوروبية السابقة .

ونشأت فى هذا القرن التاسع عشر بالذات فلسفة راديكالية تقيم « المادة » وحدها فى الوجود الانسانى ، كما تقيم الطبقة الدنيا ، وهى طبقة عمال الزراعة والصناعة أو الطبقة الـ (Poletarier) ، بما يجعلها صاحبة الحق الأول فى السيادة ، دون ما عداها من رجال المال والصناعة (الرأسماليين) ومن المثقفين والمفكرين أى دون الطبقتين الأخريين .

و « كارل ماركس » (Karl Marx) (١) بما كتبه فى « رأس المال » وفى « اعلان الثورة » يعتبر الفيلسوف الذى قنن هذه الفلسفة « المادية » الراديكالية ، وجعلها صالحة للتطبيق . وهى لا تخرج عن جملة نقاط رئيسية :

١ — صراع الطبقات وأنه حقيقة تاريخية .

٢ — استغلال بعض الطبقات لبعض ،

٣ — وجوب استيلاء الطبقة العاملة على السلطة ، بالثورة المسلحة ،

٤ — قيام ديكتاتورية العمال ، بحيث لا يسمح فيها لآخرين دونهم بالاشتراك فى السلطة أو التوجيه والرأى .

وفى ظل ديكتاتورية العمال :

(أ) تلغى التشكيلات والتنظيمات والأحزاب السياسية القائمة ،

(ب) وتلغى الملكية الخاصة ،

---

(١) عاش بن عامى ١٨١٨ — ١٨٨٣ .

(ج) وتؤمم الصناعة والتجارة الداخلية والخارجية ، والملكية العقارية.

(د) وتنشأ المزارع الجماعية .

(هـ) وتكافح الكنيسة مكافحة لا هوادة فيها . ويكافح الايمان وتشجع الحركة الالحادية .

(و) وتلغى الأوقاف على الشئون الدينية .

(ز) ويبشر بالثورة العالمية على أنها حتمية الوقوع .

قام انقلاب الـ (Commune) فى باريس سنة ١٨٧١ وأعقبه قتال فى شوارع المدينة طوال الأشهر الثلاثة : مارس . ابريل . مايو من عام الانقلاب .

ولكنه انتهى بسفك الدماء . وهو انقلاب شيوعى يستهدف تحقيق التوازن فى توزيع الثروة القومية . ولكنه كان لمصلحة العمال أو الطبقة الدنيا فى المجتمع .

... حتى جاءت الثورة الروسية فى أكتوبر سنة ١٩١٧ . وهى ثورة الطبقة العاملة . أو ثورة الفلسفة الماركسية . أو الشيوعية . أو البلشفية .

هذه ثورة عمالية ضد الطبقية .

وتلك — وهى الثورة الفرنسية — ثورة الطبقة الوسطى ضد الطبقية .

وشتان بين نزعة كل من الثورتين .

احداهما . وهى الثورة الفرنسية . وان لم تنجح فى تحقيق هدفها .

وثانيتهما — وهى الثورة الشيوعية أو البلشفية — مادية بلغت فى الاتجاه المادى حدا سلبت معه الفرد من الانسان خصائص انسانيته .

... وكلتاهما تدعى استهداف الغاء الطبقية فى المجتمع الانسانى الأوروبى . ولكن واقع الأمر فيهما : أن الثورة كانت موجهة :

للقضاء على الطبقة العليا فى المجتمع الذى قامت فيه .

ولرفع الطبقة التى قامت باسمها الثورة الى المستوى الأول المتميز في الطبقية .

... فالطبقة العليا فى المجتمع الفرنسى — قبل الثورة الفرنسية — كانت تتكون من الأمراء والنبلاء أى من الأرستقراطيين فقضت هذه الثورة عليها باسم : الاخوة والحرية والمساواة "

والطبقة العليا فى المجتمع الصناعى الأوروبى — الذى عاش فيه ماركس — كانت طبقة أصحاب رؤوس الأموال من رجال الصناعة . والتجارة ، ورجال المال وأصحاب الأراضى الزراعية الواسعة فيما يسمى غرب أوروبا الآن "

وعندما طبقت فلسفة ماركس عن طريق الثورة الشيوعية الروسية فى ما يسمى الآن بالاتحاد السوفييتى قضت هذه الثورة :

على من هم فى منزله أصحاب رؤوس الأموال ممن يكونون الطبقة العليا وهم : القيصر وأعوانه . وأصحاب الأراضى الزراعية باسم ثورة ال (Poletarier) تحت شعار حتمية الحل الاشتراكى .

... وبينما حلت الطبقة الوسطى من المثقفين والمفكرين محل الارستقراطيين فى مجتمع الثورة الفرنسية . حل عمال المصانع والفلاحون فى الأراضى الزراعية محل القيصر ورجاله وأصحاب الأملاك ومن فى أيديهم المال من التجار ومساهمو البنوك فى مجتمع الثورة الشيوعية أو البلشفية او الماركسية .

... أما الطبقة التى لم يكن مستهدفا القضاء عليها من أى من الثورتين وهى :

الطبقة الدنيا من العمال والخدم فى الثورة الفرنسية .

والطبقة الوسطى من المثقفين والمفكرين فى الثورة الشيوعية أو البلشفية .

... فحلت فى المنزلة التالية لتلك التى قامت باسمها الثورة . والتى رفعت الآن الى الطبقة العليا "

أى أن طبقة العمال والخدم فى الثورة الفرنسية اخذت فى هذه الثورة منزلة الطبقة الثانية بعد المثقفين بينما اخذ المثقفون والمفكرون منزلة الطبقة الثانية فى مجتمع الثورة الشيوعية أو البلشفية بعد أن احتل عمال المصانع والفلاحون منزلة الطبقة الأولى فى هذا المجتمع .

وتعبير الشيوعية عن العمال بأنهم أصحاب المصلحة الأولى . أو أصحاب المصلحة الحقيقية هو صنو تماما لما يوصفون به بأنهم يمثلون الطبقة المتميزة فى المجتمع الثورى الشيوعى .

ورغم أن الثورة الشيوعية الروسية قامت باسم العمال والفلاحين الا انها لم تمكنهم حتى الآن من أن يكونوا أصحاب السلطة الحقيقية . أو بعبارة أخرى لم تمكنهم من أن يكونوا الطبقة المتميزة فعلا فى المجتمع الشيوعى . كما كانت تعلن فى شعاراتها المختلفة .

فزعيم هذه الثورة فى سنة ١٩١٧ وهو « لينين » (Lenin) (١) رأى الى أن يتمكن العمال من مباشرة السيادة الفعلية ومباشرة السلطة فى المجتمع الثورى الشيوعى — أن يتولى نيابة عنهم الحزب الشيوعى فى المباشرة للأمر وقيادة المجتمع العمالى الثورى .

ويمضى الآن فى — ٧ نوفمبر سنة ١٩٦٧ — خمسون عاما على قيام هذه الثورة البلشفية ولم تتهيأ بعد فى نظر الحزب ، صلاحية للعمال يباشرون بها السلطة فى المجتمع الروسى وظل الحزب الشيوعى يتولاها نيابة عنهم على نحو ما رأى « لينين » فى نوفمبر سنة ١٩١٧ .

وبتولى الحزب الشيوعى صلاحيات العمال فى مباشرة السلطة وسيادة الدولة فى المجتمع الشيوعى — وكذا فى المجتمعات الشيوعية ذات الحزب الواحد — يكون :

الحزب هو الطبقة العليا والمتميزة التى تمخضت عنها الثورة الشيوعية العمالية وهى كذلك التى تمثل قمة هذا المجتمع الماركسى .

---

(١) عاش بن عامى : ١٨٧٠ — ١٩٢٤ .

أصبح « الحزب » قمة المجتمع الثورى الشيوعى ، أو الماركسى اللينينى وأصبح « أعضاء الحزب » يمثلون الأرستقراطية الجديدة التى لها امتيازات الأمراء والنبلاء أو أكثر من مجتمع ما قبل الثورة الفرنسية .

وبقى من عداهم — وهم جميعا عمال — فى الطبقة الثانية .

أما المفكرون والمثقفون فلهم منزلة الدرجة الدنيا رغم تفوقهم فى الأجور بكثير عن العمال . لأنهم ليسوا أصحاب المصلحة الحقيقية فى الثورة البلوريتارية .

وفضلا عن أن « الحزب » وأعضاءه يتمتعون بالمنزلة الأولى فى هذا المجتمع العمالى سواء فى الأجور أو الخدمات : كالمساكن أو اقتناء وسائل الراحة كالسيارات ، أو فى تولى الوظائف الرئيسية كلها بما فيها وظائف السلك السياسى الخارجى ووظائف الاقتصاد والمال .. فلهم مع ذلك : « قداسة » رجال الكنيسة الأرثوزكسية .

و « عصمة » بطريارك « القسطنتينية » .

فلا يجوز نقدهم ، ولا نقد الحزب .

وتجب طاعته بدون مناقشة أو معارضة .

والحزب فوق الدولة وفوق رياستها ، وفوق الحكومة والسلطة التشريعية .

وليست هذه هى المنزلة التى كانت للطبقة الأرستقراطية فى المجتمعات السابقة بل تكاد تكون منزلة الألوهية .

ومن اجل ذلك ، تصور الفجوة الاجتماعية التى بين الحزب من جانب والطبقة العاملة من جانب آخر فجوة كبيرة ، وصعبة فى تخطيها .

وهكذا .. ممارسة تطبيق الماركسية اللينينية فى أول مجتمع ثورى ، ماركسى عمالى لم تذهب فحسب بما تسميه الماركسية « بمجتمع عديم الطبقات » . بل خلقت أظلم صورة من الطبقية انعدم فيها الكيان الوجودى

لمن عدا أعضاء « الحزب » كأشخاص لهم حرمات ولهم طاقات انسانية فى التفكير والرأى والتعبير عنه .

ويكاد يذكرنا وضع « الحزب » فى المجتمع الثورى الشيوعى الماركسى بفكرة : « وحدة الوجود » الهندية القديمة التى كانت ترى : أن الوجود كله هو الاله الأكبر « براهما » وحده وأن ما عداه من الكائنات الأخرى حتى الانسان فهو « عدم » لا يتمتع بصفة الوجود ، الا اذا اتحد مع « براهما » نفسه الاله الأكبر .

واذا كانت الثورة الفرنسية ترى فى نظام الكنيسة عونا للمجتمع السابق عليها ، ومن أجل ذلك طالبت بالفصل بين الدين والدولة وأخذت بمبدأ « العلمانية » فى شئون الدولة وتركت للكنيسة شأنها مع الدين .. فان الثورة الشيوعية الروسية رأت — وترى — أن « الالحاد » والعمل على هدم الدين وهدم الأخلاق القائمة عليه . أمر ضرورى لانجاح « الثورة » ولذا سميت فلسفة هذه الثورة باسم « الاشتراكية العلمية » .

و « الاشتراكية العلمية » مصطلح فلسفى قصد به فى الدرجة الأولى فى هذه الفلسفة : تحدى الدين .

والعمل بكل الوسائل « العلمية » على اجتثات جذوره .

ووسائل تحدى الدين ، والعمل على هدمه فى التطبيق الماركسى اللينينى تراها الماركسية اللينينية فى :

(أ) اسقاط هيبة رجال الدين ، والعمل على السخرية منهم ، فى جميع أجهزة الاعلام الحديثة .

(ب) اضطهاد الكنيسة — أو ما يشبهها من الهيئات الدينية — وتحريم الانتساب اليها ، أو زيارتها على أعضاء الحزب والشباب ،

(ج) مصادرة الأوقاف الدينية ،

وتحويل ممتلكاتها الزراعية الى الهيئات العامة المتخصصة فى شئون

الزراعة ، واسناد مباشرة ممتلكاتها العقارية الى المجالس البلدية والحكم المحلى .

وتحويل الأموال السائلة الى جهات التنمية والاستثمارات فى الدولة .

مع اغفال الاشارة اليها فى وسائل الاعلام أو فى الأحاديث والمحاضرات والدروس .

(د) تقييد حرية الصحافة ، كما أوصى « لينين » . اذ يقول فى هذا الشأن : « حرية الصحافة تقوى نفوذ العالم البرجوازى » (جـ٣٢ ص ٥٣٠ من كتاب « لينين ») . وكما يقول :

« حرية الصحافة معناها : أن آراء جميع المدنيين يمكن أن تنتشر - والآن يملك الكلمة الأغنياء والأحزاب السياسية الكبيرة » (جـ ٢٥ص٣٩١) .

واذا قدر أن وجد فى نظام حزب شيوعى ماركسى — كالحزب الوطنى فى أندونيسيا مثلا على عهد الرئيس سوكارنو — ما بنص على احترام ما يسمى بـ « القيم الروحية » ... فذلك أمر يتعلق فحسب بمرحلة التطبيق للماركسية ، كما يوصى « لينين » نفسه بمبدأ : « المراحل » فى التطبيق ، للمواءمة مؤقتا بين العقيدة الجديدة وهى الماركسية من جانب ، وبقاء الحماس العقيدى للايمان القديم من جانب آخر ، حتى لا تنتكس الشيوعية بمعارضة قوية من بقايا رجال الدين القديم وأفكارهم .

فالتعبير عن احترام « القيم الروحية » فى هذا النظام الماركسى المستعار لنظام الحزب الوطنى الأندونيسى تعبير أجوف لا واقع له . لأن أول سؤال يتبادر الى الذهن عند قراءته هو : أية قيم روحية ؟

أهى القيم الروحية فى الاسلام ؟

أم القيم الروحية فى المسيحية ؟

أم هى التى فى اليهودية ؟

أم هى الأخرى التى فى الديانات القديمة ، كالبوذية والبراهمية ؟

أم هى خليط مما فى هذه الأديان ؟

ثم كيف يتم تنسيقه وانتقاؤه ؟

ان موقف الاسلام من الديانات السابقة عليه واضح ومعلوم . فكيف تكون القيم الروحية فى الأديان السابقة عليه ممثلة لاتجاهاته ؟

كيف تنسجم فى المسيحية مثلا :

روحية التثليث ،

وعصمة الانسان (البابا)

« ونيابته » عن الله فى الحكومة على الأرض — وتلك هى خصائص المسيحية — مع وحدانية الله فى الاسلام .

وجواز الخطأ على الانسان كما يجوز عليه الصواب ، فى اجتهاده فى تطبيق مبـــادىء الدين فى محيط نفســـه وأسرته وأمته ، وهى ميزات الاسلام ؟

كيف تنسجم فى اليهودية مثلا خصائصها التى تتمثل فى :

روحية شعب الله المختار ،

مع المساواة فى الاسلام التى عبر عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شـــعوبا وقبـــائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله أتقاكم » (١)

كيف تنسجم :

روحية وحدة الوجود ،

والحلول .

والاتحاد فى البرهمية الهندية القديمة .

مع روحية الاسلام فى الله وفى صلته بخلقه ؟

---

(١) الحجرات : ١٣

ثم ان التعبير فى فلسفة الماركسية بالاشتراكية العلمية صريح وواضح تماما فى الغاء الدين والعمل بلا هوادة وبلا رفق على استئصاله .

فكيف يجمع فى نظام فلسفى واحد بين هذا التعبير من الدين ، والتعبير الآخر عن احترام القيم الروحية ؟

ان هذا التعبير الثانى — وهو القيم الروحية فى نظام ماركسى — هو نفاق ، أو خداع أو مداراة ممن يأخذ بالنظام الماركسى ، ويحاول أن يطبقه فى مجتمع له دين قائم ، وبالأخص فى مجتمع يؤمن بالاسلام .

والمجتمع الماركسى أو الشيوعى اذ يبالغ فى تحدى الدين ،

يتأثر أولا بموقف الثورة الفرنسية قبله من الكنيسة والدين ،

وثانيا بالمادية المفرطة التى تكون خطوط التفكير الفلسفى للماركسية .

ومع ذلك ففى التطبيق الماركسى حاول « لينين » أن يضفى على الفلسفة الماركسية خصائص العقيدة والدين ، وهى القبول بدون مناقشة ، وعدم حرية الرأى فى تقييمها ،

... كما حاول أن يستعير من الدين أوصاف « الجنة » للغد الأفضل الذى يبشر به ، بل قد نقل بالفعل جنة السماء الى الأرض فى « الغد الأفضل » ، رغم أنها لا ترى عليها أبدا ، ورغم الحديث عنها المتكرر فى وسائل الاعلام ، ورغم التطلع الى رؤيتها من العمال الكادحين .

ولكن يظهر أن التطبيق الماركسى احتفظ أيضا بخصيصة جنة السماء — وهى أنها لا ترى الآن — حتى يكمل التشابه بينها وبين جنة الارض فى الماركسية ، وهى غدها الأفضل .

لكن كيف : لا ترى جنة ماركس على الأرض ، وهو لا يؤمن الا « بالمادية » ؟ .

... بالاضافة الى أن « لينين » نقل قدسية الكنيسة . وعصمة رئيسها ، الى الحزب الشيوعى وسكرتيره العام .

ان المجتمع الأوروبى تأصل وقام على روح الطبقية ،

ولازمته هذه الروح فى تطوره وتغييراته المختلفة ،

وما زالت باقية فيه ، مهما كانت صنوف الثورات وتعدد شـــعاراتها .

ولن تخف هذه الروح أو تنعدم الا اذا ســـادت الروح الانســـانية وحدها ، وعلت كل عامل آخر فى تسيير المجتمع .

والثورات التى قامت فى أوروبا حتى الآن بقيت على هامش المجتمع الأوروبى ، بفعل ما كانت تتجه اليه من ميول مادية .

***

الفصل الثانى

المجتمع الإسلامىّ فى أصالته

قام المجتمع الاسلامى على اساس :

من دعوة الاسلام الى « المساواة » فى الاعتبار البشرى ،

وان الذى يحقق هذه المساواة هو « الحرية » التى يجب أن تتوفر للعقل فى تفكير الانسان ، وفى اعتقاده وفى تصرفه وسلوكه .

فقد نادى بالمساواة فى هذا الاعتبار فى جملة من آيات الكتاب المبين ، على نحو ما جاء فى قول الله تعالى :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ... » (١)

... فأصل القرآن الكريم فى هذه الآية « المساواة » فى الانسانية (الناس) على مبدأ : أن الكثرة التى خلقت من البشر مردها جميعها فى الخلق الى : **« نفس واحدة »** ، ومرد كثرتها الى المزاوجة بين الذكر والأنثى ، اللذين هما من نفس واحدة أيضا .

واذا رد جميع أفراد البشرية الى نفس واحدة فى التكوين ، فهم حتما متساوون فى خصائص الانسانية ، لا يتميز بعضهم عن بعض ، نقصا أو زيادة فى هذه الخصائص . اذ الطبيعة واحدة ، واعدادها على نحو مساوى .

---

(١) النساء : ١ .

... وما جد فى حياة الناس بعد ذلك من :

غنى وفقر ،

وضعف أو قوة فى عصبية الأسرة ،

ومباشرة أو غير مباشرة فى توجيه الأمر ،

... لا يغير من المساواة فى القيمة البشرية لجميع الأفراد ..

... واختلاف الناس فى ميولهم واتجاهاتهم :

هذا الى القوة والحرب ،

وذلك الى الدعة والسلام ،

وهذا الى التطلع الى السيطرة وذلك الى الطاعة والخضوع ،

وهذا الى العمل اليدوى وذاك الى العمل العقلى ،

وهذا الى جمع المال وكنزه وذاك الى انفاقه أو تبديده ،

وهذا الى الكثرة فى النسل وذاك الى القلة فيه ،

وهذا الى الظهور والخيلاء وذاك الى التواضع أو العزلة .

... اختلاف الناس فى ميولهم واتجاهاتهم هذه وأمثالها أمر طارىء على مقومات الطبيعة البشرية ، وتجانسها فيها ، وهو عرض وليس بأصيل فيها ، حتى يمكن أن تتنوع هذه الطبيعة الى أنواع مختلفة .

نعم فى داخل مقومات الطبيعة البشرية وخصائصها قد يتميز فرد عن فرد فى قوة الميل أو ضعفه نحو هذا أو ذاك ، ولكن أصول الميول قائمة . ومن ثم فالاعتبار البشرى لكل الأفراد واحد :

هم من نوع واحد ، مهما كانت الفروق الفردية داخل الاطار العام للطبيعة البشرية .

وعلى أساس من الفروق الفردية قد يتم التمايز بين الأفراد كأفراد ، ولكن لا يدعو هذا التمايز الى قيام الطبقية ، وتقسيم النوع الانسانى.

الى طبقات ، يفضل بعضها بعضا فى القيمة الانسانية ، ويبرر تفاضلها استغلال الأعلى منها للأدنى ، على نحو ما هو معروف فى تاريخ المجتمع الأوروبى .

يقول الله تعالى :

« ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) .

... فبعد أن يقرر القرآن الكريم هنا : المساواة فى الطبيعة البشرية بين الناس جميعا بخلقهم من ذكر وانثى ، لا يرى : أن اختلافهم الى شعوب وقبائل يعود الى أساس التفاضل بينهم ولا يؤدى اليه أيضا ، ومن ثم يتيح الفرصة لاستعلاء بعضهم على بعض .

وانما اختلافهم فى ذلك مدعاة للالتقاء والتعارف فيما بينهم . اذ قد يكون بعضهم ثريا ، او قويا ، أو كثير العصبة ، والبعض الآخر فقيرا ، أو ضعيفا ، أو قليل العصبية فى الرجال ، فتكون هنا حاجة لتعاون الثرى والضعيف ، أو قليل العصبية ، مع القوى فى عصبيته والفقير فى ماله .

فالأمة الضعيفة فى خبرتها والغنية فى مواردها الطبيعية فى حاجة الى أمة أخرى قد تكون فقيرة فى هذه الموارد ، لكنها قوية فى الخبرات والكشف عن مصادر الثروة .

... ثم كذلك بعد هذا كله يرى القرآن الكريم هنا أيضا : أن المساواة فى الطبيعة البشرية وفى الاعتبار البشرى والقيمة الانسانية — ولذا ينبغى أن لا يسخر أحد من احد : **« ياأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نسآء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن »** (٢) — لا تحول دون التمايز بين الأفراد ، تبعا لما بينهم من مفارقات فى الميول الطبيعية فى قوتها وضعفها . وهنا تقول هذه الآية الكريمة :

« ... ان أكرمكم عند الله أتقاكم » اى أن فضل بعضكم على بعض

---

(١) الحجرات : ١٣ . (٢) الحجرات : ١١ .

لا يعود الى قبلية ، ولا الى شعوبية ، ولا الى طبقية ، مما يتخذها مجتمع الجاهلية أساسا للمفاضلة ، والتفرقة والتمييز بين الناس . وانما يعود الى السلوك الكريم المهذب الذى ينطوى على احسان للنفس وللغير معا ، فضلا عن أنه يجنب الضرر والايذاء للنفس أو للغير كذلك .

وهذا السلوك الكريم هو ما يؤول اليه معنى « التقوى » التى جعلتها الآية هنا نقطة المفاضلة بين الأفراد .

ومثل هذا السلوك يكون فرديا ، وليس طبقيا . لأنه يتصور : أن يقع من أى فرد من أفراد الانسان ، بغض النظر عن المجموعة التى يكون فيها حسبما تصنفه تقاليد المجتمعات ، أو بغض النظر عما بقى من رواسبها فى تقييم الناس ومجموعاتهم .

وقد ينشأ عن هذا التمييز وصف للمتميزين يعرفون به دون من عداهم ، ومع ذلك لا يكونون طبقة بالمعنى المفهوم للطبقة ، كالوصف بالمؤمنين فى مقابل : الكافرين ، والفاسقين ، والمنافقين .

والاسلام قبل أن يدعو الى « المساواة » وابعاد روح الطبقية فى مجتمع الدعوة الاسلامية دعا الى « الحرية الفردية » عن طريق الايمان بالله أولا ، على أن هذا الايمان أمر يخص الطبيعة الانسانية وحدها ، بجانب ما عرف لهذه الطبيعة من خصائص شائعة قبل الاسلام عن الاغريق من : العقل ، والغرائز التى يشاركه فيها الحيوان .

وبذلك تختلف نظرة الاسلام الى خصائص طبيعة الانسان عن تلك النظرة التى عرفت للاغريق ، وتكون على أساس منها : المجتمع الاغريقى ، فالمجتمع الأوروبى ... الى الوقت المعاصر ، واختلاف النظرتين بعضهما عن بعض أمر عميق الجذور والأثر معا فى بناء المجتمع الانسانى وفى بقاء تماسكه .

فاذا كانت الفلسفة الاغريقية التى قام على أساسها المجتمع الأوروبى حتى الآن ترى : أن خاصية الانسان فى : العقل ، أو فيما يسمى : الادراك ... فان الاسلام يرى بجانب الادراك خاصة أخرى للانسان ، وهى خاصة الايمان بالله .

والسمع والبصر ان كانا الطريق الرئيسى الى الادراك الحسى فالعقلى في الانسان .. فالقلب فى الانسان هـو الطريق الأول والأخير للايمان بالله لديه .

وجعل القلب مكان الايمان بالله ، لا باعتبار أنه المركز الرئيسى للدورة الدمـوية ، فذلك أمر يتعلق بالوظيفة الطبيعية الحيـوانية له ، ولكن باعتبار : انه يمثل العمق فى نفس الانسان ، فليس هو على سـطح بدن الانسان ، كما هو شأن العين مركز الابصـار ، والأذن مركز السمع .

وهذا يعطى أمرين :

أولا : أن الايمان بالله اذا استقر فى القلب أى فى أعماق النفس قلما ينسى ، أو قلما تنال منه أحداث الزمن .

((لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حـاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه)) (١) .

... فالآية الكريمة تشير الى أن سبب الموقف القوى الذى يقفـه المؤمنون من أعـداء الله ورسـوله ــ وهو ذلك الموقف الذى لا تهزه العواطف وعلاقة الدم والقرابة ــ يعود الى أن الايمان قد نقش واستقر فى قلوبهم .

نعم .. تأييد الله لهم فى هذا الموقف له دخل فى قوته ، ولكن التأييد من جانب الله هو مظهر آخر من مظاهر الايمان . فلولا الايمان لما كان التأييد للمؤمنين بعد ذلك .

... بخلاف ما يأتى به البصر ، أو السمع . فانه عرضة للنسيان ، أو الاختلاط بغيره من المدركات الأخرى .

ثانيا : من أجل ذلك : ان القيمة الذاتية للايمان بالله فى حيـاة الانسان أكثر ايجابية ، مما يوصـله البصر ، أو السمع ، للادراك الداخلى .

---

(١) المجادلة : ٢٢ .

فمن حيث اضافة القلب فى نظرة الاسلام كخاصة يتميز بها الانسان عن الحيوان بجانب الادراك ، يقول القرآن الكريم :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (١) .

... فانتظار الشكر من الانسان فى هذه الآية على خلق السمع ، والبصر له ، والفؤاد فيه ، لا باعتبار أنها أجهزة طبيعية تؤدى دورها الطبيعى العادى للانسان كما تؤدى ذات الدور للحيوان .. ولكن باعتبار : أنها مصادر علم ، وتوجيه ، وهداية له ..

وبذلك تمثل خواصه التى أنعم الله بها على الانسان ، وميزه بها على غيره ، مما يشاركه فى الحركة ودفع الغريزة ، وهو الحيوان ..

وبذلك أيضا يظهر التقابل فى الآية بين شقها الأول وهو :

١ ـ **« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا »** ... فنفى أن يكون للانسان علم مسبق قبل ولادته ..

... وشقها الثانى ، وهو :

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ... فابرز هنا استعداد الانسان الآن لتحصيل العلم ، والهداية بما أعد به .. وهو ما يجب أن يشكر الله عليه ..

والانسان فى نظر الاسلام اذن ليس بالادراك ـ الحسى والعقلى ـ وحده . وانما هو انسان بادراكه الذى وسيلته الرئيسية السمع والبصر ، ثم بايمانه كذلك الذى طريقه القلب أو الفؤاد ..

والادراك ، والقلب ـ بناء على ذلك ـ يتحمل الانسان مسئوليتهما فى توجيههما الوجهة السليمة .. وهى مسئولية كون الانسان انسانا فى : توجيهه ، وفى سلوكه ، وفى مواقفه وحلوله لمشاكل الحياة ..

---

(١) النحل : ٧٨ .

« ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (١) .

---

(١) الاسراء : ٣٦ .

فالقرآن الكريم يطلب من الانسان هنا كمبدأ عام — بعد أن حدد له منهج الاعتقاد والسلوك نحو الآخرين معه فى مجتمعه — أن يكون سمعه وبصره وقلبه وسائل علم ، وليست وسائل ظن ، على معنى أن يجنبها تتبع مالم يعرفه ومالم يجزم به . وبذلك يبقى بعيدا عن أن يسىء لنفسه أو لغيره .

أما المنهج المشار اليه فقد ذكره :

١ — فى جانب الاعتقاد فى قوله :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه ... »

٢ — وفى جانب السلوك نحو الوالدين فى قوله :

« ... وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

٣ — وفى جانب السلوك نحو الأقارب وأصحاب الحاجة فى قوله :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ... » .

٤ — وفى جانب السلوك فى انفاق المال فى قوله :

« ... ولا تبذر تبذيرا . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا ... » .

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

٥ — وفى جانب السلوك بشأن الأولاد فى قوله :

« ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطأ كبيرا » .

٦ — وفى جانب حرمة العرض فى قوله :

« ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا » .

=

... ومن هنا اذا تعثر الانسان فى طريقه الى الانسانية ، وانحرف عن مستواها ، فانه لا شك يكون قد قصر فى سعيه : اما عن طريق عقله أو عن طريق قلبه ، فاغلق منفذ سمعه أو بصره ولم يعتبر بما سمع من أحداث التاريخ ، أو يرى من الشواهد المادية فى الحياة الانسانية أو يحجب قلبه عن أن ينفذ اليه الايمان بالله متأثرا بمتع الحياة وفتنتها فينصرف اليها كلية ، ولا يستطيع حينئذ أن يعرف حدود نفسه فيزل وينحرف :

((وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا بــه يستهزءون)) (١) .

... فيحمل القرآن هنــا أولئكم الذين اساءوا استخدام ادراكهم الانسانى ، وأفئدتهم ، مغبة اساءتهم اباها ، وقد أساءوا استخدامها ، اذ جحدوا بآيات الله واســتهزأوا بها ، فلحقتهم نتيجة ذلك من الدمــار والخراب ما أطاح بهم وأفناهم .

كما يقول فى آية أخرى :

((أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون)) (٢) .

=

٧ — وفى جانب حرمة النفس فى قوله :

((ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ، انه كان منصورا)) .

٨ — وفى جانب حرمة مال اليتيم فى قوله :

((ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن حتى يبلغ اشده)) .

٩ — وفى جانب حرمة العهد والمعاملة فى قوله :

((... وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا)) . (الاسراء : ٢٣ — ٣٥) .

(١) الأحقاف : ٢٦ .

(٢) الجاثية : ٢٣ .

... معللا أن السبب فى اتباع بعض الناس غرائزهم ، وشهواتهم ، وأهواءهم ، وفى اتباعهم ما يسمى بـ « النفس الأمارة بالسوء » على نحو ما يذكر القرآن : ((**وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى، ان ربى غفور رحيم**))(١) ... بحيث يصبحون فى تبعيتهم لها عبادا لها وتصبح هى فى نظرهم آلهة ، وبذلك يضلون فى تفكيرهم ، وفى اعتقادهم ، وفى مشاعرهم — معللا ان السبب يعود الى اساءة استخدامها ، وعدم الانتفاع بها كما ينبغى ، كخاصة للانسان فى انسانيته ، تميزه عن الحيوان المشارك له فى تلك الغرائز وحدها .

وعبر هنا عن اساءة استخدامها بما يفيد الاستمرار فى تلك الاساءة ، وعدم السماح بندرة بعدل فيها الى النهج السليم بشأنها .

فالختم على السمع والقلب ، وجعل الغشاوة على البصر يؤذنان باحكام الحيلولة دون سماع الحق ورؤية الهدى ، والايمان بالله مصدر الحق والهدى معا .

ومن أجل ذلك تنفى الآية على وجه التأكيد — فى صورة استفهام انكارى — أن تكون ذاته ، أى الانسان ، على هذا النحو مصدر هداية له . لأنه يكاد يكون قد نحى انسانيته تماما عنها . وليس له بعد ذلك سوى الله جل شأنه . فهو وحده الذى يستطيع أن يغير أمره .

أما من حيث منزلة « القلب » بالنسبة لوسيلة « الادراك » وأهميته فى حياة الانسان ... فيذكر القرآن الكريم فى قول الله تعالى :

((**فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور**)) (٢) .

... اذ الآية الأولى من الآيتين هنا تشير الى أن تغيير المجتمع ، واستبدال مجتمع جديد بمجتمع سابق عليه ، يتم عندما ترتكب قيادة المجتمع

---

(١) يوسف : ٥٣ .

(٢) الحج : ٤٥ ، ٤٦ .

السابق انحرافا فى الاعتقاد والسلوك . وبذلك تظلم هذه القيادة المجتمع كله ، كما تظلم نفسها ، فتستحق الزوال والتغيير .

على أن زوالها وتغييرها لا يصيب الحضارة المادية للمجتمع بأضرار من جراء الانحراف ، كما يصيب الأشخاص أنفسهم . فالحضارة المادية باقية عنوانا ودليلا فى الوقت نفسه على ما كان ، ثم صار اليه الأمر فى المجتمع . أما الأشخاص فلابد أن ينحوا تمهيدا لازالة الفساد والانحراف . بسبب او بآخر .

... والآية الثانية هنا فى الآيتين أيضا تعيب على الآخرين الذين انحرفوا فى ايمانهم . كذلك فكذبوا بما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم لم يعتبروا بأحداث التاريخ ولم يعرفوا منها : أن الانحراف والفساد والظلم لا تخلف ثلاثتها الا القضاء حتما على المنحرفين والمفسدين والظالمين أنفسهم . فتلك قضية أولية ، ومبدأ اجتماعى يحكم بقايا المجتمعات الانسانية وزوالها :

فالآية اذ تندد بعدم اعتبارهم بالتاريخ وحركته ترجع عدم اعتبارهم هذا الى حجب قلوبهم وعدم تركها مفتوحة حرة للايمان بالله وحجبها : اما بحرصهم على خرافات يعتقدون فيها فلا مكان بها لايمان جديد ، واما باتباعهم هواهم فلا يستطيعون صده وعندئذ يسد عليهم جميع مشاعر النفس فلا ينفذ الى القلوب ايمان أى ايمان .

ولما كانت القضية هنا قضية الايمان والانحراف فيه أو عنه ، وضعت هذه الآية الثانية هنا الأهمية على القلوب أولا . وذكرت من أجل ذلك أن الهداية هنا مردها الى القلب النير وأن الضلال والكفر هنا أيضا مرده الى القلب الأعمى . « **فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** » .

والمسألة اذن ليست مسألة هداية بصرية ، وانما هى هداية قلبية .

ولأجل أن أمر الهداية والكفر — وهو السياق الذى نزلت فيه الآيتان السابقتان — يتعلق بالقلب أعطيت للقلب فى الآية الأولى خاصية الادراك الانسانى وهو التعقل « **... فتكون لهم قلوب يعقلون بها** » على اعتبار

أن التعقل أو الادراك من شأنه ان يوصل الى التوجيه السليم • وكأن الآية اكتفت بالقلب عن العقل هنا لأهمية القلب . وكأن القلب لهذه الأهمية فى مجال الايمان والكفر يباشر خصيصته من الايمان ، كما يباشر خصيصة العقل من الادراك معا •

أما ذكر السمع فى قوله : ((**أو آذان يسمعون بها**)) ... فطالما أن الأمر يرتبط بالتاريخ وأحداثه فمن الامعان فى التنديد بعدم الاعتبار بهـا أن ينفى عن الذين لم يعتبروا بها : أن تكون لهم آذان يسمعون بها مـا ترويه حقائق الماضى وأحداثه •

... وليس وصف القلوب فى الآية الأولى هنا بأن بها التعقل ((**فتكون لهم قلوب يعقلون بها**)) .. دليلا على أن المراد « بالقلب » فيما يجىء ذكره فى القرآن الكريم هو « العقل » • واذن تتحدى نظرة الاسلام الى ما يتميز به الانسان عن الحيوان مع النظرة السابقة عليه ، وهى نظرة الاغريق مثلا فى الفكر الأوروبى . لأن العقل الذى هو الادراك ، لا يدخل الايمان فى نطاقه• على معنى أن ايمان الانسان يستقر وراء الادراك ، وغالبا ما يكون عاملا من عوامل الترجيح والحكم الذى هو وظيفة الادراك واذن ليس هو ، وانما غيره •

واذا كان هناك فى عرف علماء النفس فى الانسان دائرة « لا شعورية » وراء الادراك ، ودائرة أخرى شعورية وهى الادراك نفسه فان موضوع الايمان اذا مر بالدائرة الشعورية أول الأمر فان تصرفه بعد ذلك يكـون منبثقا من الدائرة الثانية •

وميزتها : أن ما استقر فيها يدفع الانسان ويحركه فى اتجاه الموضوع الذى استقر ، دون حاجة جديدة الى التفكير والترجيح والحكم فى هـذا الموضوع • ومن هنا كان دفع الايمان دفعا مستمرا •

وبنظرة الاسلام الى الانسان ، وبتحديد ميزته عن الحيوان المشارك له فى الحركة والغرائز •

- بالادراك أولا ،
- ثم بالفؤاد مع ذلك •

... أعطى الاسلام صمام أمان قوى لعقل الانسان فى أن يكون — كما أريد له فى خلقه — قوة فى توجيه الانسان ، يرتفع فيه فوق سيطرة الشهوة وتحكم الغرائز .

وعندئذ يمكن للأنسان أن يستنير بقوة ادراكه بعقله ، ويهتدى بها فى حل مشاكل الحياة ، دون مخاوف الانحراف أو الانحدار الى مستوى أدنى من مستوى الانسانية فى السلوك والتصرف ، وبذلك يحقق الانسان انسانيته فى ذاته وفى مجتمعه .

فلفت الاسلام النظر الى « القلب » فى الانسان كمقر للايمان بالله ، ثم تأكيده أهميته لصالح العقل فى مشادته مع الغرائز ، وفى محاولة كل منهما السيطرة على توجيه الذات ... يشكل النقطة الفاصلة فى بناء المجتمع الانسانى :

تلك — أى النظرة الأوروبية — نظرة تثق تمام الثقة فى قدرة العقل الانسانى ، مع ضعفه فى بعض مراحله الأولى ، على قيادة الغرائز الانسانية والتحكم فى توجيهها ، مع ما لها من قوة الاعداد فى مباشرة وظائفها ، منذ ولادة الانسان .

وهذه أى النظرة الاسلامية — نظرة مع احتفاظها للعقل بوظيفته ، وهى توجيه الذات وهدايتها فى حل الصعوبات التى تواجهها ، تريد له أن تمر مراحله الأولى ، وهى مراحل نشأته وتطوره ، دون أن تشتد فيها الغرائز بحيث تنزع منه زمام القيادة فى التوجيه .

... هذه النظرة الاسلامية لا تلغى وظيفة العقل ، اذا هى لفتت النظر الى « القلب » والايمان ، وأكدت دورهما فى حياة الانسان .

وانما هى تساعد العقل فقط على أن يكون نموه وتطوره خاليا من العقبات التى تجمده ، أو تقوده لتبعية الغرائز : مصادر الشهوات الانسانية وبهذه المساعدة تفسح أمامه الطريق السليم للنمو والتطور .

... هذه النظرة الاسلامية تريد للعقل الانسانى أن يباشر وظيفته فى استقامة ، وفى غير ضغط عليه .

... تريد له « الحرية » لينمو ويعيش فيها ، ولتكون له صفة لازمة في عمله وتقديره ، طالما يعمل ويقدر ..

ان الاسلام يثق بالعقل الانساني ، كما يحتفظ له بدوره في حياة الانسان ، ولكنه فحسب لا يبالغ في هذه الثقة بحيث يرى العقل وحده وهو في طفولته ، قادرا على كبح جماح الغرائز والشهوات .

والفرق بين النظرتين — أي الاسلامية والاوروبية — ليس في الثقة في العقل وفي عدمها فيه ، بل في الاعتدال والمبالغة فيها ... وليس في ابعاده عن وظيفته وهي التوجيه والهداية ، وانما في مدى تمكينه من هذه الوظيفة .

نظرة الاسلام تسعى الى هذا التمكين بحيث ، لا تعتريه فترات ضعف، أو ركود أو انحراف .

والنظرة الأخرى تتركه لظروف الذات والبيئة والمجتمع ، اى نتركه للصدفة والعوامل الأخرى الخارجية عن ذات الانسان .

... نظرة الاسلام ترغب في « حرية » العقل في مواجهة غرائز الانسان ... ترغب في أن يحقق : أنه مصدر « الارادة » في الانسان اذ بالارادة وحدها يمكن للانسان أن يتعدى الصعاب والعقبات في حياته .

والقلب ، والايمان الذى يحل فيه ، هو السند الذى يستند اليه العقل أن ينشأ حرا متخلصا من نفوذ الشهوة ومصدرها وهو الغرائز ، وفي أن يحقق الانسان هدفه من أن يكون صاحب ارادة يتصرف بها في « اختيار ومشيئة » دون أن يقع تحت تأثير القوى الحيوانية فيه ، وهي قوى الغرائز .

ان الايمان بالله الذى يستقر في القلب سيلزم الانسان بنتائجه في التفكير والسلوك . بعد أن يعبد الطريق لحرية التفكير وحرية السلوك ، في ضغط الهوى والشهوة ، وتحكم الغرائز ، أو مما يسمى بالنفس الأمارة بالسوء .

ونتائج الايمان بالله تكاد جميعها تعود الى الصلابة في مواجهة اغراء المتع المادية في الحياة وزينتها ، وهي تلك التي تصورها الآية القرآنية .

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متـــاع الحياة الدنيا » (١) ... فجعلت مصدر الشهوات ثلاثة : المرأة ، والولد ، والمال .

والمفهوم لاغراء المتع المادية هو الوقوع تحت تأثيرها والتبعية لها . أو بعبارة أخرى : اخضاع التفكير ، والاعتقاد أو السلوك لها .

أما الاستمتاع بها دون التبعية لها فذلك أمر طبيعى ، لا يفوت على الانسان حريته فى التفكير أو الاعتقاد أو السلوك :

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (٢) .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » (٣) .

وهنا يفرق الاسلام اذن بين الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا فى الحدود التى لا تجعل العقل الانسانى يخضع لسيطرة مصادر الشـــهوات من : النساء والبنين ، والأموال فى صورها المتنوعة ، وبين الاغراق فيها وعدم الافاقة من اغرائها وفتنها .

... واذا قيل بعد ذلك : ان الاسلام دين يلائم الطبيعة البشرية فذلك واضح : لأنه لا يوصى بالحرمان من متع الحياة ، ولا بالعزلة عنها ... لا يوصى بالرهبنة وأشباهها مما يجعل المادة فى الحياة أمرا غير مقبول فيها . بل يطلب الى المؤمنين فى صراحة : عدم تحريمها ، ويجعل التحريم اعتداء لا يرضى عنه الله . ففى تحريم الطيبات ومتع الحياة المادية خروج بالاسلام عن أن يكون فطرة الله التى فطر الناس عليها .

... كما أنه اذا قيل : « روحية الاسلام » ضرورة حتمية لاستقامة التفكير ، والاعتقاد ، والسلوك فى محيط الانسان ومحيط المجتمع الانسانى

---

(١) آل عمران : ١٤ (٢) الأعراف : ٣٢ .

(٣) المائدة : ٨٧ .

فذلك واضح أيضـــا : لأنه عن طريق الأخذ بهذه « الروحية » تتوفـــر للعقل الانسانى ظروف الصحة والسلامة ، وهى الظروف التى تجعله يمارس سيادته وحريته ، دون أن يحرم من متع بدنه ، ودون أن يلزم بتكاليف لا قبل له بها .

« وروحية » الاسلام التى تقوم على الايمان بالله أولا تتحقق للفرد المؤمن : بالعبادات التى فرضها الاسلام وجعلها أصولا لا مفر منهـــا فى قيام هذه « الروحية » ، وهى عبادات :

الصلاة ،
والصوم ،
والزكاة ،
والحج ،

... وكل منها يسهم بقســـط ، فى جانب من تدريب الذات ، بحيث اذا أديت جميعها أصبحت الذات فى الطريق الحر ، أو فى طريق الأمان الذى يسير فيه العقل الانسانى نحو غايته ... أصبحت الذات حـــرة :

فالصلاة اذ يواجه فيها المؤمن ربه كل يوم خمس مرات يناشده فيهـــا أن يحول بينه وبين الاغراء بمتع الحياة الدنيا : « ... **اياك نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » (١) ... اذا بالصـــوم تجربة عملية تتكرر فى سنى حياة الانسان لا لمنع الاغراء بهذه المتع فحسب ، وانما لمنع المتع ذاتها والحيلولة دون الاستجابة لحاجة الذات اياها . وهى تجربة تخرج منها الذات بمعنى التفوق والقدرة على تجاوز الحاجة الى هذه المتع فى الوقت المحدد ، أو فى الوقت الذى تضطر فيه الذات الى التغاضى عن هذه الحاجة وجعلها عديمة الدلالة والأثر ، اذا تعارضت تلبيتها مع تحقيق أهداف انسانية أهم وأبعد عمقا فى حياة الانسان .

وأداء الزكاة ينبىء عن خطوة أهم فى تحقيق معنى القدرة الذاتية على تجاوز حاجة الذات الى متع الحياة . فهى اســـتغناء عن رضاء ،

---

(١) الفاتحة : ٥ ــ ٧ .

وتنازل عن مال مقتنى ، قربة الى الله وتوجها به الى نيل القبول عنده .

واذا كان أداء الزكاة ينبىء عن أداء هذه الخطوة من جانب المزكيين فان مال الزكاة نفسه هو الضمان لتحقيق التضامن فى المجتمع الاسلامى وسد ثغرات الحقد ، التى قد توسع هوتها عزل صاحب الحاجة بسبب العجز عن أن يشعر بالتعاون والأخوة . اذا ما سيطرت الأنانية فى تصرفات الأثرياء فمسكوا أيديهم عن اخوانهم فى المجتمع من أصحاب الحاجة .

والزكاة فى مصارفها ليست فحسب لغير القادرين على سد حاجتهم فى الحياة . وانما أيضا لأولئكم الذين تحملهم جوائح الزمن على فقد مالهم ، أو تدفعهم أحداث المجتمع الى التضحية بهذا المال فى سبيل بقائه أو فى سبيل تماسكه ، بدفع الفتن أو برد العدو عن أن ينال منه .

والحج ليس الا توجها جماعيا للمسلمين فى كل مكان الى الله جلت قدرته يربطهم هدف واحد ، وهو أن يظلوا مسلمين على ايمانهم بالله ، وعلى قوتهم فى اخوتهم ، وعلى تساويهم فى القيمة البشرية ، لا يفرق بين واحد وآخر مظهر مادى من مظاهر التفرقة والاختلاف ، فى أعراض هذه الحياة .

والمؤمنون فى حجهم يعبدون الله ، ويتقربون بالحج اليه ، كما يتقربون اليه بعبادات : الصلاة ، والصوم ، والزكاة .

وهم اذن فى هذا الحج يناشدونه العون على تحقيق هدفهم فى الترابط ، والتماسك ، والاخاء ، بعد أن صفت نفوسهم وأمكن لذواتهم أن تكون على قوة وارادة — بفضل عبادتى الصوم والزكاة — تحول دون أن تقع تحت اغراء متع الحياة الدنيا .

واذا كانت لذواتهم هذه القوة النفسية فى الحيلولة دون التأثر بالاغراء المادى ، فذاك دليل على نمو المعنى الجماعى بينهم . وعندئذ يكون الالتقاء فى الحج على هدف الترابط والتماسك والبقاء على التساوى فى الاعتبار البشرى بين المؤمنين كافة ، التقاء مثمرا ، لا ريـاء فيه .

... وهكذا نجد أن العبادات فى الاسلام التى قامت على الايمان

بالله تتجه جميعها الى تحقيق المساواة فى الاعتبار البشرى ، كما يتجـه الايمان بالله نفسه الى توفير « الحرية » للعقل البشرى ليعمل وهـو فوق التأثر باغراء الشهوات .

ويمكن الآن أن يقال : ان الايمان بالله مصـدر الحرية الفردية ، والعبادات فى الاسـلام التى تنميه ... تحول حتما دون نشـأة الروح الطبقية فى المجتمع الاسلامى ؛ لأن هذه العبادات تستهدف فى الدرجـة الأولى اضعاف الأنانية من جانب ، وقوة المعنى الجماعى فى الذات على أساس من المساواة فى الاعتبار البشرى ، لا فرق بين انسان وآخر مهما اضيفت له من عوارض الحياة وزينة الحياة الدنيا من جانب آخر .

● والحرية الفردية التى حرص الاسلام هنا عن طريق الايمان ، والعبادات ، على توفرها فى نشاط العقل الانسانى وعمله ... حرص أيضا على أن تتوفر فى مجال التصرفات والسلوك العملى ، الذى يأتى بـه الانسان ، بعد أن وفرها لمن يدخل فى الايمان بالله وبرسالته .

فقد وفرها من قبل لمن يدخل فى الايمان ، بتحديد مهمة الرسـول صلى الله عليه وسلم بأنه أولا : ليس ملزما بهداية الناس حتى يكرههم على الايمان ((**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء**)) (١) .

ثم ثانيا بأن طلب منه أن يسلك فى دعوته مسلك الحكمة والموعظة الحسنة .

واذا دخل فى الجدل مع آخرين فيجب أن يكون الطريق الى ذلك هـو طريق الانسان المهذب :

((ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين)) (٢) .

...كما أعلن هـذه الحقيقة الواضحة : ((**لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى**)) (٣) ... لمكون شعار الدعوة ، كما هى المبدأ فى قبول الايمان برسالة الاسلام .

---

(١) البقرة : ٢٧٢ .
(٢) النحل : ١٢٥ .
(٣) البقرة : ٢٥٦ .

وحرص الاسلام على توفير الحرية فى مجال التصرف والسلوك العملى يتجلى فى مجال المال ابتداء من الزكاة الواجبة الأداء الى الانفاق بعدها فى أوجه النفع العامة ، فيحبب الى الانسان التنازل فى المال عما زاد عن حاجته .

فالزكاة الواجبة الأداء جعلها عبادة ليتقرب بها المزكى الى الله . والعبادة ، وهى قربى الى الله ، لا تنطوى اطلاقا على اكراه ، أو بغض ، أو عدم رغبة فى الأداء .

أما ما وراء الزكاة من انفاق للمال فقد سلك القرآن الكريم كل الضروب التى تجعل الانفاق أمرا يتنافس فيه الأثرياء ، أكثر مما يتنافسون فى جمع المال واقتنائه فيقول : ((**من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم**)) (١) .

ويقول كذلك : ((... **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وماتنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون**)) (٢) .

... ويجعل القبول عند الله لهذا التنازل مشروطا بأمرين :

أولا : أن يكون الانفاق من طيبات المال لدى صاحبه :

((**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شىء فان الله به عليم**)) (٣) .

((**ياأيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ماكسبتم ومما اخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم**)) (٤) .

وثانيا : أن يكون الانفاق نتيجة حب له ورغبة فيه ، وليست فيه شائبة حرج أو ضيق صدر ، فضلا عن اكراه فيه ((... **وآتى المال على**

---

(١) الحديد : ١١ .
(٢) البقرة : ٢٧٢ .
(٣) آل عمران : ٩٢ .
(٤) البقرة : ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

حبه — حب الاتيان — ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ... » (١) .

... وذلك كله مما يهيء جو « الحرية الفردية » للتنازل عن المال ، الذى يعتبر جمعه واقتناؤه لدى الطبائع البشرية ، لو تركت وشأنها ، من أهم أهدافها فى سبيل تحقيقها :

« **ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر** » (٢) . فشأن الطبيعة الانسانية التى لا تنفعل مع الايمان بالله أن ترغب فى جمع المال والتكاثر فيه فى جميع لحظات الحياة .

واذا كان الاسلام عمل فى مجال المال على أن تتوفر لانفاقه ظروف الحرية الفردية ... فما عدا هذا المجال يكون حرص الاسلام بالأولى فى أن تتوفر فيه هذه الظروف ، ويكون من السهل كذلك أن تتوفر فيه .

● والحرية الفردية ، أو المشيئة ، أو الاختيار التى يوفرها الاسلام للمؤمن عن طريق الايمان بالله — كما رأينا — كما أنها الضمان لأن يلتزم الانسان بروح المساواة فى الاعتبار البشرى بين الناس جميعا ونبذ روح الطبقية فى المجتمع ... هى فى واقع الأمر الظاهرة التى تفرق بين الفلسفة الأوروبية فى شأن المجتمع ، وبين الاسلام فيما يجدد مقومات المجتمع الانسانى .

ان سيادة « الروح الطبقية » فى أى مجتمع هو عنوان على ضعف الحرية الفردية أو على تلاشيها فى أفراده .

ما معنى أن تكون هناك طبقات فى المجتمع ؟ .

معنى أن تكون فى أى مجتمع طبقات هو أن تكون هناك حواجز نفسية على الأقل تفصل بين مجموعة كطبقة ومجموعة أخرى كطبقة أخرى . والحواجز النفسية تعود الى « النظرة » التى تنظر بها كل مجموعة الى الأخرى .

تلك تنظر الى مجموعة على أنها أدنى منها ، وهذه تنظر الى تلك على أنها أرفع منها . وربما يرجع اختلاف النظرتين الى فرق فى الثراء

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) التكاثر : ١ ، ٢ .

أو فى الجاه ، أو فى التقاليد الموروثة ، أو فى القوة والضعف ، أو فى الاستغناء والحاجة لأى من المجموعتين .. وهلم جرا ... من الأمور التى هى وراء خصائص الطبيعة البشرية ، وتعد من عوراضها ، وليس من مقوماتها .

والفرد الذى يأخذ فى نظرته وتقديره بهذه العوارض لم يتخلص بعد من اغرائها وفتنتها ، أو هو واقع تحت هذا الاغراء ومأخوذ ببريق ما لها من فتنة . وذلك شأن الفرد غير « الحر » الذى لم يتحرر من تحكم شهواته ، بفضل ما له من ايمان بالله يقف به فى مواجهتها ومتحديا اياها .

ان الفكر الأوروبى الغربى يمجد — عادة — الحرية الفردية . ولكنه لا يرى هذه الحرية فى التخلص من تحكم الشهوات وسيطرة الغرائز . بل على العكس يراها فى الانطلاق لتبرير :

شهوة اللسان ،

وشهوة البطن ،

وشهوة الفرج والاسترسال فيها .

والفكر الماركسى اللينينى — أو الفكر المادى التاريخى — يضمن الحرية الاجتماعية حرية الأفراد . فيرى الحرية الفردية غير مستقلة . وغير جديرة بالاستقلال . بل ينظر اليها فى نطاق تحرر المجتمع مما يسميه استغلال رأس المال عن طريق الغاء الملكية الفردية .

وطالما ينظر الفكر الماركسى اللينينى الى الحرية الفردية على أنها غير مستقلة ، فليس مطلوبا من الأفراد أن يسعوا بذواتهم الى التخلص من تحكم غرائزهم وشهواتهم .

ثم اذا كانت لهم غرائز وشهوات فلا يرون فى الحياة الدنيا ، بحكم الغاء الملكية الخاصة ، مالا حتى تكون له زينة واغراء ، ولا يرون كذلك أولاد لأنهم ليسوا لهم بل للدولة ، وليسوا هم مسئولين عنهم مسئولية شخصية ، وبذلك لا يكون الأولاد مصدر فتنة وزينة لهم . أما النساء فقد خلق مبدأ المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة فى التفكير الماركسى جوا

يحول دون أن تكون المرأة زينة فى حياة الرجل يؤثرها ويتعلق بها ، كما يتعلق الحريص على موجود يعزه ويقاتل فى سبيله .

والذى يعدم شخصيته واستقلاله الفردى لا يكون موضـــوع حديث كانســـان . ولذا يتحدث عنه الفكر الماركسى كجزء فى كل ، أو كترس فى عجلة . فهو يعد لحركة ، ولا يتحرك بذاته ، فضلا عن ان يكون مختارا أو مكرها فى تحركه .

ثم اذا حرم الفرد فى نظام الحكم الماركسى اللينينى من مصادر الزينة والمتع فى الحياة الدنيا وهى : المال ، والولد ، والمرأة — وعندئذ ليس فى حاجة الى جهد لتخليص ذاته من اغرائها وفتنتها — فانه لا شك يتطلع اليها ، مهما كان الكبت ، وكانت درجة الحرمان . وهو الآن مكره على قبول الحرمان . فلا يقال : انه تحرر من الضغط ، ويستطيع أن يكون الآن حرا فى تفكيره ، واعتقاده ، وسلوكه .

وطالما الفرد فى نظام الحكم الماركسى اللينينى مكره على الحرمان ، فهو غير مختار وغير ذى مشيئة . وهو الآن مساوق للفرد فى نظام التفكير الغربى فى فقد الحرية الفردية . الا أن الفرد الماركسى مكره من قبل نظام الحكم فى المجتمع ففقد حريته الفردية . أما الفرد الآخر فى النظام الغربى فقد أطلق لنفسه عنان الشهوات ففقد حريته الفردية بسيطرة الغرائز على عقله .

كل منهما — الفرد فى النظام الماركسى والآخر فى النظام الراسمالى — ليست له ارادة يرتفع بها فوق مجال الضغط والاكراه .

كل منهما يكاد يفقد انسانيته ، لأنه يفقد حريته الفردية بسبب أو بآخر .

كل منهما تابع وخاضع : هذا الماركسى اللينينى تابع لقهر نظام الحكم الذى يعيش فيه ، وذاك الغربى تابع للشيطان نفسه ، وهو ما تصوره المعدة والفرج .

كل منهما عبد ورقيق : هذا الماركسى اللينينى عبد ورقيق لغيره ، وذاك الغربى عبد ورقيق لشهوة نفسه الامارة بالسوء .

والمجتمع الذى تفقد أفراده الحرية الفردية باكراه أو بضغط ، لابــد أن يكون مجتمعا طبقيا .

فالمجتمع الذى تتبع أفراده شهوات النفس هم أنانيون بحكم هذه النبعبة سعيهم فى الحياة بسـبب أنانيتهم ، ومن أجل تحقيق أهدافها . وأهداف الأنانية لا تخرج عن نطاق الذات وما لها من شهوات ورغبات : لا تخرج عن نطاق القوة للذات ، وجمع المال من أجل الذات ، وتحصيل الحياة لخدمة الذات ، وتحصيل المتع لامتاع الذات ، وكثرة الأولاد فى سبيل عصبية الذات.

وعندئذ يكون هناك فى المجتمع :

أقوياء بقوة السلاح مثلا يحافظون على قوتهم ويعتزون بها ،

وأثرياء يحافظون على ثرواتهم ويفخرون بها ،

وأصحاب جاه يسعون لبقاء هذا الجاه لهم ويمجدونه فيهم ،

ومترفون يعيثون فى الأرض فسادا ، توفيرا لترفهم ويباهون بـــه ،

وأصحاب عصبية فى الأسرة أو فى القبيلة يتطاولون بعصبيتهم ويحافظون على تفوقها فى الكثرة .

وبجانب هؤلاء يوجد فى المجتمع أيضا آخرون :

ليس لهم مـــا يملك هؤلاء من أسباب القـــوة والثراء ، والجـــاه ، والترف ، والعصبية . فهم أدنى منهم فى كل ذلك .

وبمرور الأجيال على هذا التميز والتفرقة تظهر « الطبقية » ويبدو استعلاء طبقة على أخرى ، وخضوع طبقة لأخرى : استعلاء الطبقة القوية ، أو الثرية ، أو صاحبة الجاه ، أو صاحبة العصبية ، أو التى تملك أسباب الترف على الأخرى الضعيفة ، أو الفقيرة ، أو عديمة الجاه ، أو من لا عصبية لها . وخضوع الطبقة الضعيفة للقوية ، والفقيرة لذات الثراء ، وعديمة الجاه لصاحبته ، وقليلة العصبية لصاحبة الكثرة فيها .

واذا تحكم الاستعلاء بفعل الأنانية فى مجموعة من الأفراد كطبقة ، وتحكم الخضوع والتبعية فى مجموعة أخرى بحكم العجز وعدم القدرة على بلوغ ما بلغته المجموعة المستعلية ... فان روح الطبقية تتحول الى عامل أصيل

فى قيام المجتمع ، وفى تغييره على السواء مهما طال الزمن ، ومهما كانت الطبقة التى تسعى الى التغيير .

وطالما الأنانية باقية فروح الطبقية كذلك ، كظاهرة اجتماعية لهــا .

والمجتمع الآخر الماركسى اللينينى الذى يخضع أفراده لغيرهم فهذا الخضوع للغير ظاهرة من ظواهر الطبقية فيه ، فالمجموعة التى تخضع غيرها تتميز حتما عن تلك التى تخضع لها وتكره على التبعية لتوجيهها :

الأولى تتميز بالاستعلاء ، مهما ادعت أو نادت بنداء الرفاق والأصدقاء..

تتميز بالاستعلاء ، لأنها صاحبة الأمر والكلمة والتفرد بالسلطة : وهى طبقة الحزب .. وهو الحزب الشيوعى أو العصبة الشيوعية فى الاتحاد الاشتراكى لقوى الشعب كما فى نظام يوغسلافيا — وهو الحزب الوحيد الذى يسمح به فى نظام الحكم الماركسى اللينينى .

... بينما تتميز المجموعات الأخرى ، وهى مجموعات الجيش والعمال ، والبرجوازيين على اختلاف فى درجاتهم ومنازلهم بالطاعة وعدم النقــد والمعارضة ... طاعة المكره ، وليست طاعة المؤمن ، وعدم نقد الخائف ، وليس عدم نقد المقتنع ، وعدم معارضة الأجير الذى يحافظ على لقمــة العيش : الخبز ، وليس عدم معارضة صاحب المصلحة القومية .

ونظام الحكم الماركسى اللينينى من أجل ذلك يتميز بظواهر :

أولاها : احتكار الحزب الواحد للسلطة . ويحرص هذا النظام أشــد الحرص على أن تكون جميع مقاليد الرقابة والسلطة بيد أعضائه . ولا يسمح اطلاقا بأن يكون هناك تعدد لأحزاب سياسية ، كما لا يسمح بنقل هذه السلطة لغير أعضائه من بقية أفراد المجتمع مهما كان شأنهم . اذ تعدد الأحزاب سيتيح الفرصة للمنافسة على الحكم من جانب ، ولاظهار نقائض الحزب الآخــر فى سياســته من جانب آخــر . وبذلك تذهب « قداسة » الحزب ومكانته فى المجتمع ، وبالتالى ينقد صلاحيته كطبقة خاصة فى الاستعلاء وفى الطاعة له .

كذلك اذا لم تكن السلطة احتكارا لأعضاء الحزب وباشرها نفر من غيرهم تكون النتيجة نفس الشىء بالنسبة للحزب وقدسيته .

والمذكرة (١) التاريخية التى أرسلها زعماء الأحزاب الشيوعية الخمسة فى أوروبا الشرقية وهى : الاتحاد السوفييتى ، وبلغاريا ، وبولندا ، والمجر ، والمانيا الشرقية ، بعد تداولهم فى عاصمة بولندا فى شهر يوليو سنة ١٩٦٨ الى رئيس دولة تشيكوسلوفاكيا تطلب فيها حضور المسئولين الشيوعيين فى براج — وفى مقدمتهم (Dubcik) السكرتير العام للحزب — الى « وارسو » العاصمة البولندية لمسائلتهم عما يسمى بـ « ضياع سلطة الحزب » فى الاصلاحات التى وافق عليها الحزب الشيوعى التشيكى وأثارت ضجيج هذه الأحزاب ، اذ اعتبروها ثورة مضادة للاشتراكية .. تنبىء عن مدى حرص النظام الماركسى اللينينى على « ديكتاتورية » الحزب وتفرده بالسلطة وحده ، ابقاء على « مصلحة الحزب » فى السيادة ، والتمتع بمنزلة الطبقة الحاكمة المقدسة .

وحرص النظام الماركسى اللينينى على الملكية العامة — والغاء الملكية الفردية — وانما هو للتحكم فى أفواه الأفراد فى المجتمع ، وفى اكراههم على قبول الحرمان ، وقيود العمل أى عمل ... ولا يقل اطلاقا حرصه على ديكتاتورية الحزب فى السلطة ، وفرض الرقابة على النشر وأجهزة الاعلام .

... وهكذا تحولت الثورة البلشفية فى أكتوبر سنة ١٩١٧ التى قامت مدعية أنها لصالح العمال ضد الطبقة الارستقراطية من أسرة القيصر وأصحاب رؤوس الأموال والاقطاع ، وضد الطبقة الأخرى البرجوازية من الادرايين والمتقدمين تحت شعار : صراع الطبقات لخلق مجتمع « عديم الطبقات » ... تحولت الى مجتمع طبقى ينفصل فيه بين الطبقة والأخرى .

« الاكراه » من جانب ، والخضوع من جانب آخر .

« والقدسية » من جانب وانتهاك الحرمات من جانب آخر .

« وديكتاتورية » الرأى والسلطة من جانب وعدم السماح بالرأى وعدم المشاركة فى السلطة من جانب آخر .

---

(١) مقتبس من المجلة الألمانية (der Spiegel) عدد ٢٩ ص ٤٧ فى ١٥ يوليو سنة ١٩٦٨ .

ان مجتمع الثورة الماركسية يكاد يمثل مجتمع العبيد فى القرن العشرين الذى استحل فيه الرق الجماعى لفريق من الأسياد يدفع الثمن البخس ولكن فى شكل أجور ، دون أن تكــون لهذا الفريق ميزة فى اســتقلاله بالسيادة سوى : الارهاب الذى تقوم به تشكيلات مختلفة لحماية ما يسمى بـ « الثورة » وفى مقدمتها : الجيش والحرس ، ومنظمة الشباب .

واذا كان للأفراد الأرقاء فى نظام الرق القديم أمــل فى التحرر عن طريق « العتق » أو « المكاتبة » ... فهذا النظام الماركسى فى الاسترقاق لا يترك بصيصــا من أمل فى الخــلاص من رقه وعبودبنه ومن اكراهه وارهابه .

ان القرن العشرين يشهد وضع « الحرية الفردية » ــ كما رأيناه اما فى الانطلاق نحو شهوة البطن والفرح ، أو فى الكبت والحرمان ــ فى المجتمع الأوروبى ، فى الشرق ، وفى الغرب ، كما لم يزل يشهد « روح الطبقية » فى تكوين هذا المجتمع ، وفى قيامه ، وفى تغيره ، رغم الفلسفة الماركسية التى بشرت بالمجتمع « عديم الطبقات » ، ورغم الثورة البلشفية التى قامت فأسست نظاما للحكم انقضى عليه خمسون عاما على أساس من هذه الفلسفة .

... ان القرن العشرين يشهد فى أوروبا « انطلاق » الأفراد فى سلوكهم فى المجتمع ، كما يشهد « اكراههم » وارهابهم ، وحرمانهم فى مجتمع آخر .
ومع ذلك يشهد ثورة تبكنولوجية لم يشهدها التاريخ البشرى فى يوم من الأيام التى مضت .

وهذه الثورة التيكنولوجية هى وليدة الحرب العالمية الثانية ، كما هى وليدة الخوف والقلق فى المجتمع الغربى والشرقى على السواء ، بعد انتهاء تلك الحرب والفوز فيها لمن يعرفون اليوم بالمعسكر الغربى والمعســكر الشرقى ، وقد كانوا حلفاء فيها .

ان حرص الحلفاء ــ وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية ــ على النصر فى الحرب العالمية الثانية دفعهم الى الانفاق كثيرا على البحــوث العلمية وتطبيق نتائجها فى مجــال الصــناعة خدمة للأغراض الحربية ، ومساعدة على الخروج من تلك الحرب بنصر قوى وعاجل .

وقد حققت النفقات الكثيرة على البحوث العلمية وتطبيق نتائجها فى

مجال الصناعة للأغراض الحربية تقدما كبيرا فى التيكنولوجيا شـجع على الاستمرار فى هذا التقدم بعد الحرب :

العون الكبير من قبل الشركات الصناعية فى الغرب كله ، ومساعدة الحكومات لبرامج هذا التقدم للأغراض السلمية .

ثم ما ان انتصر الحلفاء على دول « المحور » فى تلك الحرب العالمية الثانية حتى انقسموا الى معسكرين متقابلين : معسكر الشرق بزعامة الاتحاد السوفييتى ، ومعسكر الغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ، وابتدأت المنافسة على زعامة العالم فى مجال السياسة والاقتصاد بين هاتين الكتلتين ، كما ابتدأ الصراع الطبقى الماركسى يظهر بينهما كذلك : احداهما كممثلة للحركة العمالية العالمية ، والأخرى كممثلة للرأسمالية الصناعية .

وبسبب هذا الصراع الطبقى ، وكذلك بسبب التنافس على الزعامة العالمية السياسية والاقتصادية اشتد الاقبال داخل المعسكرين على استخدام العلماء ، والاغداق عليهم والانفاق فى سخاء منقطع النظير على البحوث العلمية والمجالات الصناعية لتطبيق نتائجها ، أملا فى كسب الزعامة العالمية ، وكذلك أملا فى اخضاع المعسكر المقابل .

ثم بسبب تقدم البحث النووى وتفجير الذرة ، وصنع القنبلة الذرية ، ثم الهيدروجينية انقطع الأمل فى تحطيم اى من المعسكرين للآخر ، وظل كسب الزعامة العالمية مع وضع الحرب « الباردة » موضع الحرب الساخنة فى استمرار الصراع الطبقى بين الكتلتين ... هدفا للتنافس بينهما .

ولكن وجود الكشف النووى ، وصنع القنابل الذرية والهدروجينية أثار القلق والخوف بل والرعب ، داخل المعسكرين .

وبسبب هذا الخوف والرعب نشطت الولايات المتحدة الأمريكية ، كما نشط الاتحاد السوفييتى فى الاقبال على جذب العلماء من كل بلد والانفاق الباهظ على وسائل الحماية — وهى متعددة — من الخطر النووى .

وما زال الانفاق يستنزف الكثير من ميزانيتى هاتين الدولتين فى سبيل الحماية من الأخطار النووية . وكلما حددت وسيلة للوقاية منها اكتشفت وسيلة أخرى للقضاء على صلاحيتها .

... وهكذا : حلقة مفرغة من البحوث العلمية ، ومن وسائل التقدم التيكنولوجى ، ومن المختبرات ومراكز التجارب .

وانتقل البحث العلمى من الأرض الى الفضاء ، وانتقل التقدم التيكنولوجى من الصواريخ المختلفة الأبعاد والعابرة للقارات الى مضاد لتلك الصواريخ ، ثم انتقل كلية من مجال الصواريخ والفضاء الى الأقمار الصناعية ، وسفن الاستخبارات ، والعقول الآلية ، والطائرات الآلية للرقابة ، والغواصات النووية ، والقواعد الحربية فى قاع المحيطات ...

والعلماء الذين يعملون فى حقول البحث العلمى المختلفة وفى مجال الهندسة التطبيقية سواء فى المجتمع الرأسمالى أو الآخر الماركسى اللينينى فى الاتحاد السوفييتى ... انما يعملون تحت اغراء المال وفتنته . فمرتبات
ولو أنــه كانت لهم حرية فردية فى البحث والكشف والانتاج لما يدخل فى مجال الخيال .

وهناك يمكن أن يقال : ان هؤلاء العلماء فى بحوثهم وفى انتاجهم لم يتخلصوا من اغراء المال وفتنته . ولذا فهم لا يتمتعون بالحرية الفردية فى كلا المعسكرين .

ولو أنــه كانت لهم حــرية فردية فى البحث والكشف والانتاج لما أقدموا على تسخير العلم والهندسة التطبيقية فيما يدمر البشرية تدميرا كاملا ، ولآثروا أن يخدموا بعلمهم وانتاجهم خير البشرية ، ويطلبون ممن يؤجرونهم على البحوث والانتاج أن يوجهوا بعضــا من تلك النفقــات الباهظة المستمرة والمكشوفة منها ، والمتزايدة ، للشعوب الفقيرة فى تطويرها صحيا ، واجتماعيا وعلميا ، وثقافيا .

ومن هنــا يمكن من الأسف أن يقال : ان هــذا التقــدم العلمى والتيكنولوجى فى الشرق والغرب هو وليد :

١ ــ الخوف ، والقلق لدى الكتل المتنافسة على الزعامة العلمية .

٢ ــ وهو نتيجة الانفاق الباهظ ، وفى كثير من الأحيان على حســاب مستوى المعيشة لدى بعض هذه الكتل .

٣ ــ وكذلك نتيجة أيضا لعدم توفر « الحرية الفردية » لدى العلماء

الباحثين . اذ انهم يخضعون في بحوثهم لاغراء المال وفتنته . وعملهم العلمي لذلك يتسم باللاأخلاقية (٣)

ولولا بريق هذا التقدم العلمي والتيكنولوجي في القرن العشرين لانكشف المجتمع الشرقي الماركسي ، وكذلك المجتمع الغربي الراسمالي ، واتضح عيانا أن كلا من المجتمعين يفقد الفرد فيهما حريته الفردية : أحدهما بسبب الاغراق في شهوات المال والنساء والأولاد ، والآخر بسبب الاكراه والارهاب .

ولكن هذا البريق اللامع لا يستر فحسب هذا النقص اللاانساني ، وانما مع ذلك يغري المجتمعات الأخرى غير الأوروبية على التقليد والسير في ركب التبعية لهذا المجتمع . أو لذاك .

ومن الأسف كذلك أن هذا التقدم التيكنولوجي جعل المقاييس اللاأخلاقية هي السائدة في قتل الأفراد ، أو في ترفيههم ، وفي افناء الشعوب والحضارات . ولكن لأنه تقدم مادي ملموس لم تعد تسمع للأخلاق وللروحية كلمة . كما لم يعد رجال الأخلاق والروحية يمثلون القيم الانسانية . وانما كادوا كذلك يخضعون كذلك هذه القيم الانسانية للاأخلاقية وللاروحية .

***

الفصل الثالث

المجتمع الإسلامي المعاصر

● المجتمع الاسلامى المعاصر فى القرن العشرين هـــو وريث المجتمع الاسلامى الحديث فى القرن التاسع عشر .

والثورة الصناعية فى غرب أوروبا فى القرن الثامن عشر ، التى وسعت الفجوة فى الرعايا الاجتماعية ، وفى توزيع الأرباح الصناعية ، وخلقت بذلك توترا بين رؤوس الأموال من جانب آخر ، انتهى بقيام فلسفة كارل ماركس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبمطالبة هذه الفلسفة :

بالثورة الدموية العمالية العالمية ضد أصحاب رؤوس الأموال ،

والغاء الملكيات الخاصة ،

واقامة مجتمع لا طبقية فيه ،

... هذه الثورة الصناعية هى التى عرضت الأمة الاسلامية فى أفريقيا وآسيا ومجتمعاتها المختلفة الى الاستعمار الغربى لضمان الحصول على المواد الخام ، وبأسعار منخفضة من بلاد الأمة الاسلامية ، ولجعلها سوقا استهلاكية للمصنوعات الغربية ، وبالأخص مصنوعات النسيج ، تباع فيها هذه المصنوعات بأثمان مجزية ، أى بأثمان مرتفعة .

وبهذا الازدواج فى خفض أسعار المواد الخام ، ورفع المصنوعات منها يتحقق الأرباح الوفيرة لأصحاب المصانع الغربية أولا ، ثم للاقتصـــاد القومى فى البلاد الصناعية ثانيا .

تعرضت المجتمعات الاسلامية فى أفريقيا وآسيا — كما تعرضت مجتمعات

افريقية وآسيوية أخرى — للاستعمار الأوروبى ، وللغزو المسلح من البلاد الصناعية الأوروبية .

وقبلت هذه المجتمعات الاسلامية الاستعمار الغربى ، لانها كانت آنئذ تمثل قمة الضعف فى المجتمعات البشرية . وهو ضعف :

الأمية ،

والتفكك ،

والطائفية ،

والتخلف فى مجالات السياسة ، والاقتصاد ، والثقافة .

واذا سيطر الضعف على مجتمع ما سيطرت الأنانية ، والفردية على اتجاهات الأفراد وعلى مساعيهم .

ومعنى ذلك :

شيوع الانتهازية فى السلوك ،

وتخلف المعنى الوطنى أو القومى فى معاملة الأجنبى ولو كان : غازيا ومستعمرا .

لم يقدر الاستعمار الغربى أن يكون احتلاله للمجتمعات الاسلامية قصير الأجل . ولذلك وضع خططه على أساس أن تكون هذه المجتمعات فى « تبعية » لقيادته السياسية والاقتصادية :

فعمد الى مجال الثقافة وأبعد بعض عناصر التراث القومى ، وأضعف البعض الآخر فى مناهج التعليم . واستعاض عما أبعده أو أضعفه بعناصر ثقافية غربية توحى بعظمة الغرب ، وبسلامة قيادته ، وبالاعتماد فى التبعية عليه .

وقد أضعف وضع الاسلام فى المناهج التاريخية والتعليمية لا ليحول نظرة الناشئة عن الماضى الاسلامى نحو المستقبل الغربى فقط ، ولكن أيضا : لأن الدول المستعمرة نفسها قد تبنت بعد الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر فى سياسة الدول نظرية « مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة » فأرادت أن نطبق هذا المبدأ فى سياستها الاستعمارية فى المجتمعات الاسلامية .

ومنذئذ عرضت هـذه المجتمعات توجيه « العلمانية » فى التعليم ، والسياسة :

أما فى التعليم فقد غض النظر فى مناهجه عن القيمة الذاتية للاسلام كمصدر لتكوين المجتمع الاسلامى ، ولتاريخ الأمة الاسلامية . وربما ألصقت بالاسلام تهم : الضعف ، والتخلف ، والجهل الذى يسود المجتمعات الاسلامية اذ ذاك . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى : فقد عزل الأزهر وشبيهه من المؤسسات الاسلامية فى تلك المجتمعات عن الحياة العامة ، وعن اعتبار العصر وتوجيه الوقت ، ليصبح عديم الفاعلية وان بقى أثرا من آثار التاريخ .

وأما فى السياسة فقد فصلت المجتمعات الاسلامية بعضها عن بعض ، وأوهنت الروابط بينها ، بحيث : أن أحداث أى مجتمع منها لا يحـرك بقية المجتمعات الأخرى بل ولا يثيرها ، ولو كانت تلك الأحداث تصـور وحشية المستعمر فى الكبت والقمع والاذلال والاستغلال فى أى من هـذه المجتمعات .

وبعد مرور جيل على توطين التوجيه الغربى فى المجتمعات الاسلامية — فى ظل الاستعمار — ابتدأت التبعية لفكر الغرب وفلسفته تظهر وتشتد . وبقدر ظهور هذه التبعية بقدر ضمور الاصالة وضيق نطاق القيم الموروثة فى التأثير على التوجيه فى هذه المجتمعات .

وبعد مرور جيلين أصبح الغرب قبلة المسلمين ، وموضع نظرهم ، وأصبحت :

نظرياته فى الفكر والاقتصاد ،

وأساليبه فى الأدب والسلوك ،

بجانب علمانيته فى الفصل بين الدين والدولة ، وتوجيهه السياسى — كمصانعه فى الانتاج ومصنوعاته فى الاستهلاك — لا غنى عنها لأى من هذه المجتمعات .

بل أصبحت لغة الغرب لغة مفضلة فى الحديث ، والدراسة ، والكتابة ، اذا

قيست باللغة القومية التى لا يستعملها الا العـامة والمثقفون من أشباه الأميين .

عرفت المجتمعات الاسلامية اذن « العلمانية » أو الفصل بين الدين والدولة .

وعرفت نظم الغرب فى الادارة ، والتعليم ، والسياسة ، ونظمه الاقتصادية والمالية ،

كما عرفت مشاكله وأوضاعه الاجتماعية .

وأصبحت هذه المشاكل فى زيادتها ، أو فى تعقيداتها ، وفى حلولها تجد لها صدى مباشرا فى المجتمعات الاسلامية اذ ذاك .

ومن الأوضاع الاجتماعية التى عرفها الشرق الاسلامى المحتل عن الغرب وضع الطبقية فى المجتمع الأوروبى . ومحاولة الثورة الفرنسيه فى القرن الثامن عشر بشعاراتها الثلاثة .

الأخوة ،

والمساواة ،

والحرية ،

... تغيير وضعه ليكون مجتمعا انسانيا وليس مجتمع عبيد وأحرار .

وارتبطت المجتمعات الاسلامية آنذاك ارتباطا وثيقا بكل ما يحدث ، أو يصدر من أوروبا الى الشرق الاسلامى فى أية صورة كانت ، وأصبحت التبعية فى الانفعال بها واضحة لا ريب فيها ، بحيث كاد يعتبر هذا الشرق الاسلامى مرآة للغرب تنعكس أحداثه وقضاياه ، ومشاكله وتفكيره وأسلوبه فى الحياة ، عليها فى جلاء .

وجاء القرن العشرون وابتدأت العلاقة السياسية بين الغرب المستعمر والشرق الاسلامى تتخلخل أو تضعف ، واشتدت المعارضة الوطنية وأفصحت عن مطلب رئيسى لها وهو : « الاستقلال » .

والمقصود بالاستقلال فى الدرجة الأولى ، هو الاستقلال السياسى ، اى قيام حكم وطنى . ثم الجلاء العسكرى ان كانت هناك قوات أجنبية تعسكر رمزا للاحتلال ولقوة المستعمر الغربى .

وظهرت المعارضة الوطنية للإستعمار الغربى على أشدها فى فترة مابين الحربين العالميتين الأولى ، والثانية . وابتدأ يدرك الغــرب المستعمر : أن الحكم الأجنبى المباشر ، أو فى صورة مقنعة ، ليس له بقاء فى المجتمعات الإســلامية . ولكن مع ذلك كان يماطل بعلة أو بأخرى فى قيــام الحكم الوطنى ، أو فى الاستقلال السياسى للبلد الاسلامى ، وفى سحب قواته خارج أراضيها .

ومع هذه المماطلة كانت تقوى روح الكراهية للغرب . ولكنها لــم تكن تتعدى النقد المرير لأسلوبه السياسى . الى أن جاءت الحرب العالمية الثانية وانتهت بما انتهت اليه من زوال نفوذ « المحــور » فى العــالم ، وانضمام الشرق الشيوعى الممثل فى الاتحاد السوفييتى الى الغرب الممثل للاستعمار والعلمانية فى النفوذ أو فى محاولة تقســيم النفوذ فى عــالم القرن العشرين .

وقد استفاد الاتحاد السوفييتى فى مجال الزعامة العالمية بكراهية الدول التى كانت تحت الاستعمار الغربى للغرب ولسياسته . فأعلن معاداته للاستعمار ، كما أعلن مساعدته بالسلاح والعتاد للتخلص من هذا الاستعمار أو من بقاياه .

وقد كان لهذا الاعلان صداه فى التحول العاطفى من الغرب «الرأسمالى» الى الشرق « الماركسى » أو « الشيوعى » لتحقيق الاستقلال الذى كان أملا وطنيا ، وظل كذلك ، والذى تعتبره تلك الدول رمزا لكرامتها ، ومن كثرة مماطلة الغرب المستعمر فيه كانت تعده أملا بعيد الوقوع .

وكانت احدى النتائج التى أتت بها الحرب العالمية الثــانية بالنسبة للعالم ادراك الدول المستعمرة فى الغرب وجوب العدول عن الاستعمار كلية ومنح البلاد التى ما زالت تحت الاستعمار استقلالها ، وانشاء علاقات تتسم بالمساواة فى الاعتبار وفى المعاملة السياسية والاقتصادية . وتجلى هذا الادراك بعد قيام الأمم المتحدة ووضع دستورها فى ســنة ١٩٤٨ .

وأخذ الاستعمار يتراجع ويتقلص ، لا بفضل الاعــــلان السوفييتى لمناوأة الاستعمار ، ولكن بفضل الدول المستعمرة نفسها ، ضمانا لمستقبلها فى معاملة حسنة مع الشــعوب التى كانت مستعمرة ، ومنحت أو تمنح استقلالها .

ومنذ النصف الثانى من القرن العشرين كانت حركة التراجع للاستعمار الغربى فى سرعة واضحة ، حتى أصبح العالم اليوم لا يكاد يجد مستعمرة باقية الا وعد باستقلالها فى وقت لاحق .

وانتهى بذلك اليوم الاستعمار الغربى . لكن كراهية المعارضة الوطنية لهذا الاستعمار لم تنته — وان لم تكن على قوتها فيما مضى — بالنسبة للدول التى كانت لها مستعمرات . كما أن التحول العاطفى نحو الاتحاد السوفييتى — بفضل دعايته القوية ودعاية عملائه فى أفريقيا وآسيا تحت شعار حركات التحرير — لم يخف ، ولم يضعف .

وانما لهذا التحول العاطفى عدل الاتحاد السوفييتى فى استراتيجيته السياسية : فألغى ظاهرا « الثورة العالمية » وأعلن « التعايش السلمى » مع الاستمرار فى الحرب الباردة ضد الرأسمالية الغربية ، وبالأخص ضد الولايات المتحدة الأمريكية ، بالاستهجان ، والتهديد ، والتقبيح ، والتقليل لكل ما يجرى فيها وما يتصل بمظاهر الحياة والسياسة الأمريكية . ثم من جانب آخر بالاشادة بكل ما يأتى به الاتحاد السوفييتى ولو كانت أساسه الاحصائيات أو البيانات المصطنعة .

والبلاد التى استقلت حديثا عن النفوذ الغربى فى أفريقيا وآسيا وجدت فى الاتحاد السوفييتى بسبب تغيير استراتيجيته السياسية ، ثم بسبب رواسب الكراهية للغرب التى تبقت بعد الاستقلال فى مجتمعات هذه البلاد سندا تستند اليه فى السياسة الدولية .

وبعض هذه البلاد يستقبل هذا التغيير السياسى للاتحاد السوفييتى فى حذر واحتياط . والبعض الآخر تدفعه روح الكراهية للغرب الى تغيير نظام الحكم كلية ليساوق النظام الآخر المقابل ، وهو نظام السوفييت .

فيعلن الاشتراكية الماركسية ،

ويلغى الأحزاب السابقة ،

ويؤسس نظام الحزب الواحد ،

ويفرض الرقابة على وسائل الاعلام ،

ويناوىء الدين ويلغى الأوقاف الدينية فى شتى صورها .

وقد يقيم من بين أجهزته الدعائية جهازا دينيا ، ليقوم بتغطية شل فاعلية الدين ويشارك فى القضاء على أموال الأوقاف الدينية .

وهكذا توطن فى المجتمع الاسلامى الحديث فى القرن التاسع عشر :

النظام العلمانى الغربى فى التوجيه بكل ما له من آثار ،

وكذلك النظام السياسى الديمقراطى ، وهو نظام الأحزاب والملكية الفردية ،

والنظام الاقتصادى وهو المباشرة الحرة لرؤوس الأموال ،

والنظام الادارى فى دواوين الحكومة ،

والنظام القضائى فى المحاكم المختلفة .

وورث المجتمع الاسلامى المعاصر فى القرن العشرين هذه النظم الغربية .

وبعد الاستقلال السياسى وجد نفسه أمام نظم أخرى تحكم المجتمع وهى النظم الاشتراكية الماركسية .

وبسبب رواسب الكراهية للغرب التى ترسبت بعد المعارضة الوطنية للسياسة الغربية الاستعمارية فى ظل الحماية والاستعمار ، ثم بسبب البريق اللامع للسياسة السوفييتية التى بشرت بها بعد النصر فى الحرب العالمية الثانية من أجل المنافسة فى زعامة العالم السياسية والاقتصادية .. مالت بعض المجتمعات الاسلامية الى قبول النظام السوفييتى فى الحكم ، كراهية للغرب من جانب ، وأملا فى سند السوفييت لبقاء الحكم من جانب آخر .

والمجتمعات الاسلامية التى قبلت نظام الحكم السوفييتى أو النظام الماركسى اللينينى ، بعد توطن النظام الغربى ، وبالأخص اتجاه العلمانية ... زاد فيها بقصد أو بغير قصد : اضعاف الدين ، وهو الاسلام .

وربما تستعيض عنه باسم « القيم الروحية » اذا لم ترد قيادة المجتمع مفاجأة الرأى العام المحلى أو العالمى الاسلامى بالغاء الدين .

واسم القيم الروحية تعبير بديل عن الغاء الدين وابعاده كلية .

ومثل هذه المجتمعات الاسلامية التى قبلت النظام الماركسى اللينينى لا يعد قبولها لهذا النظام استمرارا فحسب فى اتجاه العلمانية وابعادا للاسلام عن التوجيه . وانما يعتبر قفزا راديكاليا فى القضاء عليه .

وهذه المجتمعات التى قبلت النظام السوفييتى بعد استقلالها السياسى بسبب كراهيتها للغرب لم تكن مجبرة على قبوله اطلاقا ، كما لم تكن ملزمة باستمرار الأخذ بالنظام الديمقراطى الغربى فى الحكم ، لأنه غير متعين حينئذ .

وانما الاتجاه الوطنى والتاريخى ... وانما الأصالة وعدم التبعية للشرق أو الغرب كانت تبدو واضحة فى تأسيس نظام الحكم فى المجتمع الاسلامى ، بعد استقلاله على الأيديولوجية التاريخية التى ورثها ، وعرف بها ، وعاش مكافحا الاستعمار الغربى من أجلها ، ونجح فى مكافحته ومعارضته بسببها وحدها ، وهى الأيديولوجية الاسلامية .

وهذه الأيديولوجية الاسلامية تستطيع أن تفى بحاجات المجتمع المعاصر فى نظام الحكم ، كمجتمع قوى بناء . ولكنها من غير شك لاتستطيع أن تستجيب للانطلاق الفردى فى اشباع الشهوات كما هو يجرى فى المجتمع الرأسمالى الغربى ، ولا ان توافق اطلاقا على الارهاب . والاكراه ، والاستبداد ، والاستعلاء كأدوات فى نظام حكم المجتمع ، كما هو التطبيق العلمى للفلسفة الماركسية اللينينية لثورة « البروليتاريا » .

ووفاء الأيديولوجية الاسلامية بحاجات المجتمع المعاصر يقوم :

أولا : على تحقيق «الحرية الفردية» التى ثبت أنها تتميز بها على النظامين الغربى والشرقى فى الحكم على السواء ، والتى هى كذلك البداية الضرورية لوجود المستوى الانسانى فى الفرد .

واذا كان وجود الفرد هو وجود انسانى فالمجتمع الذى يتكون منه هو مجتمع انسانى بالضرورة . وعندئذ سيكون التعاون ، والفهم الجماعى المشترك بين الأفراد ، والتقدم فى البناء البشرى والمادى من النتائج الضرورية لوجود المستوى الانسانى للفرد .

ولكن الأخذ بنظام الأيديولوجية الاسلامية فى ادارة وتوجيه المجتمع الاسلامى يتطلب من القادة الذين يباشرون الحكم :

أولا : التخلى عن ذلك الوهم الذى ينسج تعارضا أو عداء بين « العلم والدين » . فان ذلك كان قضية خلقتها الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر انتقاما من الكنيسة ، بسبب مساندتها للطبقة الأرستقراطية فى

المجتمعات الأوروبية السابقة على الثورة ، على نحو ما تطالب الأيديولوجية الماركسية بالغاء الدين وتقويض مبادئه كاجراء انتقامى ضد الكنيسة وسلطتها كذلك فيما تدعيه من مساندتها الأثرياء في مواجهة العمال ، وكوقاية من كشف « اللاأخلاقية » و «اللاانسانية » التى تضمنها مذهب « المصلحة » أو « البرجماتزم » الذى تأخذ به اذا بقى للدين اعتباره فى ظل الحكم الماركسى . والفصل يجب أن يكون بين الدين والكنيسة ، وليس بين العلم والدين .

ثانيا : الايمان بالمصلحة العامة للمجتمع ، دون مصلحة بعض الأفراد الشخصية . اذ عندئذ يكون هناك مجال للالتقاء مع مبادىء الاسلام فى نظام الحكم . أما تحقيق مصلحة بعض الأفراد على حساب البعض الآخر أو تحقيق مصلحة القلة على حساب الكثرة ، فسبيله أحد نظامى الحكم فى المجتمع الأوروبى ، اذ فى ظل واحد منهما تنشأ أرستقراطية المال ، وفى ظل الآخر توجد أرستقراطية السلطة والجاه .

ثالثا : الفهم للاسلام كنظام للانسان فى انسانيته : فى سلوكه اليومى ، وفى سلوكه الجماعى ، ولبس كنظام للبادية ،

أو للقبلية ،

أو لوقت مضى ، ولم يعد ،

أولجنس معين من البشر ، دون بقية الناس .

... مما يثيره المغرضون من الباحثين الصليبيين ، أو الأميون والسطحيون من المثقفين ، أو مما تقصه المزاعم الاسرائيلية فى كتب التراث الاسلامى .

رابعا : الادراك الواسع لمبدأ : ان قيادة الأفراد لا تكون باغراء المنفعة المادية ولا باثارة لعاب اللسان بالوعود بمتعة البطن والفرج وحدهما . فالانسان مزدوج فى تركيبه وطبيعته . وتأكيد جانب واحد فى مركبه هو بمثابة كبت للجانب الآخر فيه . وذلك يعنى محاولة تحويله الى عنصر واحد ، على الضد من طبيعته التى خلق عليها .

وثنائية الانسان ، هى ثنائية الوجود ، وثنائية الحياة :

فالانسان اذا كان جسما ونفسا فهو مادة وروح ويحيا ويموت ،

والوجود اذا كان متعددا فمرده الى واحد ، ومصير الواحد فى الوجود بدوره الى تعدد .

والحياة اذا كانت نهاية لفناء أو عدم ، فهى مقدمة ضرورية للفناء والعدم مرة أخرى .

... وهذه الثنائية تفرض حتما أن يؤخذ فى اعتبار التوجيه :

المعانى الانسانية :

كالاخلاص ،

والصبر على المشاق ،

والوفاء بالوعود والعهد ،

والمشاركة فى العواطف ،

والتعاون فى يسر الحياة وعسرها ،

والشجاعة والاقدام فى الدفاع عن المبدأ ، والوطن ، وفى انقاذ المستغيث ،

والتهذيب فى القول والعمل .

... مما تكونه « الروحية » بجانب التكافل على دفع الحاجة المادية والمشاركة فى اقتسام نعم الله ، لا على أساس : أن المعطى متفضل على الآخذ صاحب الحاجة ، وانما على أساس أن النعم كلها من الله وللجميع .. **« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء »** (١) .

وهذه الروحية هى روحية الاسلام وليست روحية الفلسفة .

● وفى تطبيق النظام الرأسمالى فى المجتمع الاسلامى — على عهد العلمانية ، والاستعمار الغربى — لم يشجع هذا النظام الربا والتعامل به فحسب فى أوسع دائرة فى جوانب الاقتصاد والمال ، وانما شجع على الغاء الزكاة الواجبة . واستأصل هذه العبادة الاسلامية التى هى حجر

---

(١) النحل : ٧١ هـ

الزاوية فى التكافل الاجتماعى من جانب ، وفى توفير وسائل الدعــوة الى سبيل الله قوية ومتجددة .

فالزكاة هى مصدر التمويل لدفع حاجة المحتاج عن عجز او عن عارض مؤقت بجانب ما له من آثار أخرى على ابعاد الدين عن التوجيه ، ولدفع غرم الغارم فى سبيل الأمة وبقائها متماسكة قوية ، وللاستمرار فى الدعوة الى الله .

وليست الزكاة مصدرا لتمويل ما يطلبه الناس فى حياتهم المدنية من مرافق ، وطرق وخدمات تعليمية وصحية ... الخ .. فذلك متروك أمره لاتفاق بين سـكان الحى أو المدينة أو البلد ، أو لتبرع المتبرع منهم فى سبيلهم جميعا .

والزكاة اذن شىء يختلف عن « الضرائب » التى أتى بها نظام الحكم الغربى لسد الحاجات المدنية ، وأخذت بها المجتمعات الاسلامية .

ولا تغنى عنها الضرائب اطلاقا . اذ سبيل كل منهما مختلف ، ووجهة احدهما تغاير وجهة الآخر .

ولذا استغنى المجتمع الاسلامى بالضرائب عن الزكاة — ومـع ذلك الغيت الأوقاف على الشئون الاسلامية — فالاهمال ، والنسيان ، ثم الفناء أمور مترقبة للدعوة الاسلامية حتما . فضلا عما ينتظر من فتح ثغرات داخل المجتمع الاسلامى يطرد منها الى خارجه : معنى التكافل والتضحية فى سبيل الأمة . وهما أساسان ضروريان لتخفيف حدة الحقد بين الفقير والغنى ، ولتقوية روح المؤازرة للمنكوب فى ماله ، أو الســاعى به لدفع الفتنة فى الأمة ، أو رد الاعتداء عليها ، ولتشجيع التخلص من الرق فى صورته القديمة . أو الاستعباد فى صورته الجديدة ، وتوفير الحـرية الفردية والجماعية ، والكرامة الانسانية لمن اضطروا الى عدم ممارستها فى سلوكهم وتصرفاتهم بسبب ما .

و « الرقاب » التى جاءت كمصرف من مصارف الزكاة ليسـت هى رقاب النظام الماضى وحدها . وانما هى كذلك الرقاب التى تستعبد أو

تضطهد فى ظل القرن العشرين ، وفى عهده التيكنولوجى ، وجهالته الانسانية المظلمة .

وفى النظام الماركسى فى الحكم فى أى مجتمع اسلامى فى الجانب التوجيهى لا يلغى فيه الدين عملا وتطبيقا ، ولا تلغى الأوقاف الاسلامية موضوعا وهدفا فقط ، بحكم معاداة الماركسية للدين ومصادر الدعوة اليه . وانما بالاضافة الى ذلك :

تعطل الزكاة كفريضة وعبادة .

ويعطل الحج كفريضة وعبادة .

ويلغى الميراث ونظامه .

... اذ الغاء الملكية الفردية ، وتحديد أجر الانسان على قدر انتاجه ، ثم فيما بعد على حسب حاجته ... لا يترك فائضا من مال نخرج منه الزكاة ، أو تؤدى منه فريضة الحج ، أو يوزع كميراث .

وأجر الانسان على قدر الانتاج ، وان كانت عبارة تتسم بالمرونة فى التحديد ... فان واقع الأمر أن انتاج الفرد مقيد بالحد الأدنى لطاقة المستوى العادى من الأفراد فى هذا النظام الماركسى . على معنى : أن الفرد الذى له طاقات واسعة على الانتاج والحركة لا يمكن من العمل الا بمقدار الآخر صاحب الطاقة المحدودة معه فى العمل . فقلما يؤجر على عمل اضافى ، وقلما كذلك ينتج انتاجا خاصا به يربح به ربحا وراء أجر الدولة . والعمل من أجل ذلك يسير فى الدولة بخطوات البطىء ، وحسب مستوى البليد فى الانتاج .

ويحاول الاصلاح الاقتصادى الماركسى الآن أن يخلق فى مجالات العمل ما يسمى : بـ « الحوافز الفردية » دفعا بالانتاج فى خطوات أسرع وأجود ، وتلافيا للكسل فى العمل أو البلادة فيه .

وفى واقع الأمر ليس هناك كسل أو بلادة . وانما الشأن يعود الى انزال النظام نفسه أصحاب الطاقات الكبيرة والواسعة من الأفراد الى مستوى الأقل والأدنى منهم ، توسيعا لفرص العمل للمتعطلين . ومجالات

الانتاج والخدمات فى هذا النظام ينظر اليها على أنها مصـــــادر رزق، وتعيش ، قبل اداء الخدمات واعداد الانتاج فى ذاته .

وفى المجال الاقتصادى يستورد المجتمع الاسلامى المقلد لنظام الحكم الماركسى اللينينى حلولا لمشـــاكل لم تقع بعد . ثم قد يضـطر من أجل التبرير الفلسفى الماركسى الذى يدور حول « الصراع الطبقى » الى تصور قيام المشاكل ، باقامة الدولة لبعض المصانع كى يطبق الحل الذى يدعى : انه علاج هذا الصراع فى الفلسفة الماركسية .

فالدولة عندما تقيم بعض المصانع لبعمل فيها بعض العمال لم يكن هناك مشكل هو استغلال صـــاحب العمل للعامل ، وبالتالى لم يكن هناك صراع طبقى يستوجب النداء بسيادة العمال والسخط على استغلال رأس المال . والدخول فى مثل هـــذه الدائرة تضييع للوقت من جانب ، واثارة للأحقاد على أشخاص متوهمين من جانب آخر . اذ الدولة هى التى تملك وليس غيرها ، وملكها ملك عام للجميع .

والوضع الاقتصادى فى المجتمع الاسلامى قبل أن تقيم الدولة بعض المصانع ليس هو الوضع الاقتصادى للمجتمع الصـــناعى الغربى ، الذى أوحت ظروفه والفجوات فى الرعاية والخدمات التى كانت موجـــودة بين أصحاب رؤوس الأموال فى الصناعة ، وعمال المصـــانع بنشأة الفلسفة الماركسية لصالح الطبقة العمالية . فالمصانع التى تكون موجودة اذ ذاك — ان وجدت — رغم قلة عددها ليست بذات بال فى الانتاج . والعمال الذين يعملون فيها قلما تصـــل نسبتهم الى مجموع الشعب الى واحـــد فى المائة . ومع ذلك ربما تكون ظروف العمل فيها أفضـــل بكثير من ظروف تلك المصـــانع التى كانت على عهد كارل ماركس فى القرن التاســـع عشر فى انجلترا أو أوروبا الغربية .

وحديث مثل هذه المجتمعات عندئذ عن « الرأسمالية » واستغلالها ، وعن الصراع الطبقى ، وهو حديث لا موضـــوع له ، وهو شـــعار لدعوة المؤازرة للحكم القائم أكثر منه تعبيرا عن حقيقة واقعة .

أما الملكيات الزراعية فى المجتمعات الاسلامية التى يعتبرها النظام

الماركسى المستورد « اقطاعا » فغالبيتها ليست باقطاع ، لا من حيث حجمها فحسب ، ولكن من حيث أصل ملكيتها أيضا . انها كثيرا ما تتجمع بسبب النشاط الفردى .

ربما فى بعض المجتمعات يكون تجمعها بسبب سياسى ، أو بسبب غير مشروع من الوجهة الانسانية . عندئذ تطبيق « التأميم » على جميع الملكيات التى تسمى اقطاعا فيه مجافاة للعدل من جانب ، وكبت للنشاط الفردى من جانب آخر ، هذا النشاط الذى تحتاجه المجتمعات الاسلامية بعد استقلالها السياسى . لأن المعروف أن النشاط الاقتصادى كله فى مرحلة ما قبل الاستقلال فى المجتمعات الاسلامية يكون على الأقل تحت اشراف « الأجانب » ان لم يكن منهم واليهم . فاذا وضع تحت اشراف الدولة تطبيقا لنظام الماركسية كان معناه : الحيلولة دون وجود فرصة للممارسة الفردية بين الوطنيين واظهار نشاطهم وطاقاتهم ، وكان معناه أيضا : بقاء هؤلاء الوطنيين متواكلين فى هذا الجانب الاقتصادى بعد الاستقلال السياسى ، كما كانوا من قبله متواكلين على النشاط الأجنبى فيه .

وفى المجال السياسى يستورد المجتمع الاسلامى الذى يأخذ بالماركسية اللينينية مبدأ « سيادة الطبقة العاملة » من عمال المصانع والفلاحين فى الأراضى الزراعية ، على ما يسميها بالطبقة البورجوازية أو طبقة المثقفين . وهى الطبقة الباقية فى المجتمع بعد تطبيق النظام الماركسى .

أما طبقة أصحاب رؤوس الأموال ورجال الاقطاع ، كما يسميها ، وهم الأثرياء نوعا ما ، فتصبح الطبقة المنبوذة ، بعد أن تجرد من ثروتها، ومن اعتبارها السياسى والمدنى ، والاجتماعى ، ويحكم عليها بالحرمان بدعوى انها كانت مستغلة لآدمية العمال عن طريق ثرواتهم .

ويتضح مبدأ سيادة الطبقة العاملة فى ضمان الأغلبية أو الصوت الراجح فى المجالس الاستشارية العديدة ، وفى التكوين الحزبى لنظام الحكم . وهى بحكم مستواها الثقافى والفكرى يستحيل عليها أن تعطى الرأى ناضجا فى المصالح القومية والمشاكل الكبرى التى تواجه المجتمع سواء

بالنسبة لأحواله الداخلية ، أو فى علاقته مع المجتمعات الأخرى . ولذا يؤول أمر مشورتها الى من له المنفعة فى تطبيق هذا النظام فى احتفاظه بالسلطة .

***

اثر تطبيق الفلسفة الاوروبية فى المجتمع الاسلامى المعاصر

وعلى اية حال استمرار تطبيق النظام الراسمالى فى المجتمع الاسلامى نقل اليه روح الطبقية التى تصاحبه فى الغرب .

وربما يحس الأثرياء فى نفوسهم آنئذ بأنهم يكونون طبقة خاصة تعلو ما عداها بسبب المال والثراء .. وربما توحى اليهم هذه الروح أكثر : أن لهم نفوذا يجب أن يمارسوه فى توجيه الحكم والسياسة ، لصالح انفسهم أو لصالح المال . وربما يمارسونه فينجحون للصالح الخاص فى ممارسته ، وربما يسعون الى الاستمرار فى ممارسة السياسة ما داموا هم أقوياء بالمال .

وفى مقابل هذا الاحساس يشعر المثقفون بأنهم ، لكى يتوفر لهم مستوى معقول ومقبول فى المعيشة ، يجب أن يكونوا فى خدمة الأثرياء بثقافتهم ، وبفكرهم ، وبعلمهم ، وأدبهم ، وفلسفتهم ، وفى ادارة الأعمال ومصالح الخدمات ومواطن الانتاج ..

ويظل عمال الانتاج والخدمات على ما لهم من احساس يوحى به تصرفات الأثرياء المباشرة قبلهم ، كذلك تصرفات المثقفين فى مواقفهم ازاء هؤلاء الأثرياء وازاء العمال أنفسهم ..

وبهذا تبدو فى المجتمع الاسلامى ظاهرة الطبقية وكأنها قائمة وأصيلة .. وهى فى واقعها لم تكن الا مصطنعة وعارضة ..

فليست هناك وراثة فى الأحاسيس والامتيازات تنقل من جيل الى جيل فى مجموعة مغلقة من الناس فى اى من المجتمعات الاسلامية كما هو شأن الطبقات .. وانما هو أمر مؤقت ينبه اليه الثراء الطارىء ، ويقبله النفاق بين المثقفين ، ويخضع له العمال وهم الأكثر حاجة الى أموال الأثرياء ..

فاذا اخذ بالنظام الماركسى ، بدلا من هذا النظام الرأسمالى ، فى المجتمع الاسلامى بعد الاستقلال السياسى ... يصبح ما كان يبدو على انه ظاهرة طبقية عند الاستمرار فى النظام الغربى — وكأنه حقيقة مقررة الآن . فالدعوة الى الماركسية اللينينية لا تقبل اطلاقا الا اذا عمق الاحساس بالطبقية ، وبالأخص فى نفوس العمال والفلاحين ، وهم الذين تركز عليهم الدعوة .

والذى كان مصطنعا وعارضا بالأمس فى ظل النظام الرأسمالى يصبح اليوم تحت الحكم الماركسى حقيقة ، أو يفعل بشأنه على أنه حقيقة لا تقبل واقعيتها الجدل ، فضلا عن الشك .

ولكى تنمى الماركسية — ما يسمى بالروح الطبقية فى المجتمع الاسلامى الذى يطبقها تأخذ :

فى التنديد بالأثرياء .

والعمل على ادخال « الرجعية » ، والقصد بها الدين لا غيره .

وادخال الاستعمار .

وهما — الرجعية والاستعمار — هدفا الماركسية فى الحرب الباردة وبالأخص منذ اعلان التعايش السلمى فى سياسة الاتحاد السوفييتى ، فيما تستهجنه وتثير انفعال الطبقة العاملة ضده . بحجة أن كليهما كان يساند — ولم يزل يساند — استغلال رأس المال لانسانية الطبقة العاملة .

وهنا يعتبر هذا النظام الماركسى : التحرر من الرجعية ، أو من الدين ، ومن الاستعمار القديم والجديد — وهذا الثانى لا يدخل فيه طبعا الاستعمار الذى يباشره الاتحاد السوفييتى الآن — أكثر ضرورة من تحقيق الكفاية والعدل فى المجتمع ، واعادة توزيع الثروة القومية التى يرفعها شعارات له .

وهكذا ... يبدأ المجتمع الاسلامى تحت نظام الحكم الغربى بالاحساس بروح الطبقية ، وينتهى فى نظام الحكم الماركسى باعلان الحرب ضد الطبقية والصراع الطبقى ، دون أن ينجح فى ازالة الأحقاد ، أو حتى فى اضعاف الاحساس بالطبقية الذى أوجده النظام الرأسمالى .

اذ أنـــه يوجـــد احساسا بالطبقية من نوع آخر ، وبين مجموعات جديدة ، بدلا من تلك القديمة التى حاربها ويحاربها .

وهكذا ... منى المجتمع الاسلامى بالرأسمالية على عهد الاستعمار ، وبالماركسية اللينينية بعد الاستقلال . وهـــو بأحدهما لم يزل يـــدور فى تبعية الغير ، ومن الأسف لم يدرك بعد :

١ ـــ فشل النظام الرأسمالى فى خلق المجتمع الانسانى الحر فى الغرب .

٢ ـــ وارهاق النظام الماركسى اللينينى لانسانية المجتمع ، وحرية الفرد معا ، كما يبدو فى الشرق ، ولم يتحقق بأيهما عدل اجتماعى .

... كما لم يدرك المجتمع الاسلامى بعد من الأسف الشديد ايضا :

أن الاسلام وحده هو الكفيل باعادة المجتمع الاسلامى مجتمعا متعاونا ، متحابا افراده ، كأسنان المشط ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وأن الأمة التى تجتمع على أساس من الاسلام هى خير أمة أخرجت للناس .

وربما يأتى الغد القريب بادراك : أن الاسلام دين الحياة الانسانية ، ودين الطبيعة البشرية الذى لا يخلف مشاكل لو اتبـــع ، والذى يحـــل المشاكل القائمة اذا أخذ به ...

***

محتويات الكتاب

***

كتب للمؤلف

- الجانب الالهى من التفكير الاسلامى
- الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى
- الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر (مشكلات الحكم والتوجيه) .
- الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر (مشكلات الأسرة والتكافل) .
- الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة .
- خمس رسائل الى الشباب المسلم المعاصر .
- تهافت الفكر المادى التاريخى .. بين النظرية والتطبيق .
- غيوم تحجب الاسـلام .
- الاسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر .
- طبقية المجتمع الأوروبى .. وانعكاس آثارها على المجتمع الاسلامى المعاصر .
- الفكر الاسلامى فى تطوره .
- الاسلام فى حياة المسلم .
- رأى الدين بين السـائل والمجيب فى كل ما يهم المسـلم المعاصر (٤ أجزاء) .
- نحو القرآن .
- القرآن والمجتمع .
- منهج القرآن .. فى تطوير المجتمع .
- المجتمع الحضارى وتحدياته .. من توجيه القرآن الكريم .
- الدين .. والدولة .. من توجيه القرآن الكريم .
- القرآن الكريم .. يقول .
- من مفاهيم القرآن .. فى العقيدة والسلوك .

— ومن **التفسير الموضوعى للقرآن الكريم** ، تفسير سور : النساء ، الأنعام ، الأعراف ، يونس ، هود ، يوسف ، الرعد ، ابراهيم ، الحجر ، النحل ، الاسراء ، الكهف ، مريم ، طه ، الأنبياء ، المؤمنون ، الفرقان ، الشعراء ، النمل ، القصص ، العنكبوت ، الروم ، الصافات ، جزء عم .

تطلب من مكتبة وهبة

١٤ ش الجمهورية — عابدين ت ٩٣٧٤٧٠

رقم الايداع ١٧٤٧ / ٨٣

الترقيم الدولى ٥ــ٨٠٠ــ٣٠٧ــ٩٧٧

كتب المؤلف

١ — الجانب الالهى فى التفكير الاسلامى .
٢ — الفكر الاسلامى الحديث .. وصلته بالاستعمار الغربى .
٣ — الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر .. مشكلات الحكم والتوجيه .
٤ — الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر .. مشكلات الأسرة والتكافل .
٥ — الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلاميه المعاصرة .
٦ — خمس رسائل الى الشباب المسلم المعاصر .
٧ — تهافت الفكر المادى التاريخى .. بين النظرية والتطبيق .
٨ — غيوم تحجب الاســلام .
٩ — الاسلام فى الواقع الايديولوجى المعاصر .
١٠ — طبقية المجتمع الأوروبى .. وانعكاس آثارها على المجتمع الاسلامى .
١١ — الفكر الاسلامى فى تطوره .
١٢ — الاسلام فى حياة المسلم .
١٣ — راى الدين بين السائل والمجيب .. فى كل ما يهم المسلم المعاصر (جزآن معا) .
١٤ — راى الدين بين السائل والمجيب .. فى كل ما يهم المسلم المعاصر (الجزء الثالث) .
١٥ — راى الدين بين السائل والمجيب .. فى كل ما يهم المسلم المعاصر (الجزء الرابع) .
١٦ — نحو القرآن ..
١٧ — القرآن .. والمجتمع .
١٨ — منهج القرآن .. فى تطوير المجتمع .
١٩ — المجتمع الحضارى وتحدياته .. من توجيه القرآن الكريم ..
٢٠ — الدين والدولة .. من توجيه القرآن الكريم .
٢١ — من مفاهيم القرآن .. فى العقيدة والسلوك .
٢٢ — حياتى فى رحاب الأزهر .. طالب . وأستاذ . ووزير .

( ) الى جانب مجموعة من الرسائل بلغ عددها ٢٣ رسالة .

( ) بالاضافة الى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم فى ٢٤ كتابا ..

تطلب من : مكتبة وهبة — ١٤ شارع الجمهورية — عابدين — القاهرة
تليفـــون : ٩٣٧٤٧٠